تاريخ الأدب العربي

الجزء الاول

في

العصر الجاهلى

بقلم

السباعى السباعى بيومى

مدرس أدب بدار العلوم العليا وكلية اللغه العربيه

١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م

الثمن ١٠

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجنينة لاظ

تاريخ الأدب العربي

في

العصر الجاهلي

السباعي السباعي
مدرس بدار العلوم

١٣٥١ هـ

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجنينة لاظ

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

تاريخ الادب العربي

فى العصر الجاهلى

الادب للغة وتاريخه

انه لحرى بنا قبل التعرض لدراسة أدب اللغة وتاريخه أن نعرض لكلمة الأدب نعالجها مفردة غير منسوبة الى اللغة معالجة تسايرها منذ الطفولة الى أن اكتمل معناها وصار الى الحد الذى نعرفه لها الآن والذى عنده وضعت تلك النسبة حتى اذا ماتعرضنا لمعنى الادب نكشف عنه ونبين الغرض منه كان قولنا واقعا على أساس وألفينا ذلك المعنى سهل المأخذ على آذاننا وطيد الاستقرار فى أذهاننا .

ولعل أول معنى عرف لكلمة الأدب هو وقوعها مصدرا لأدب يأدب اللازم من باب ضرب بمعنى صنع طعاما يحتفل به ويدعو اليه والاسم من ذلك ذلك المأدبة على أن هذا الفعل استخدم من الباب نفسه ويغلب أن يكون ذلك فى الوقت عينه متعديا بمعنى دعا الى مأدبته ومن ذلك قول طرفة بن العبد ويستشهد به على المعنيين

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى   لاترى الآدب فينا ينتقر

يقول نحن فى مشتاة أى الجدب ندعو الدعوة العامة وهى الجفلى فلاترى الآدب فينا أى صانع المأدبة أو الداعى اليها ينتقر فى دعوته فيختص بها فريقا يحب غيره والنقرى ضد الجفلى

مكثت الكلمة على هذا المعنى بشعبتيه السابقتين العصر الجاهلى كله تقريبا حتى اذا ما كان قبيل الاسلام تخطت متعدية ومن باب ضرب أيضا الى معنى آخر هو التهذيب والرياضة فقيل أدبه يأدبه بمعنى هذبه وثقفه كما قيل أدبه بالتشديد على سبيل المبالغة والتكثير بمعنى علمه بل وبمعنى عاقبه على إساءة لان العقاب يحقق معنى الادب على هذا الوجه وهو كل رياضة محمودة يتخرج بها الانسان فى فضيلة من الفضائل . ومن ذلك قول عتبة بن ربيعة لابنته هند وهو يصف لها أبا سفيان بن حرب زوجا على غير تسمية « يؤدب أهله ولا يؤدبونه » وقولها له فى الجواب عن ذلك « انى لأخلاق هذا لوامقة وانى له لموافقة وانى لآخذته بأدب البعل مع لزوم قبتى وقلة تلفتى »

ولما أن جاء الاسلام بتعاليمه الداعية الى مكارم الاخلاق انتشر هذا المعنى وشاع وأكثر الناس استعماله أيما اكثار وبخاصة قول النبي صلى الله عليه وسلم « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ثم توسعوا فى كلمة الأدب فأطلقوها على كل ماله أثر فى التهذيب وحضوا لذلك على التأدب بالمأثور ولا سيما الشعر لما فيه من الدعوة الى المكارم والتسابق الى المحامد . فمن ذلك قول عمر بن الخطاب لابنه « يابنى انسب نفسك تصل رحمك واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك » وقول معاوية « اجعلوا الشعر أكثر همكم وأكثر آدابكم فان فيه مآثر أسلافكم ومواضع ارشادكم » وقول عبد الملك بن مروان لمعلم ولده « أدبهم برواية شعر الاعشى فانه قاتله الله ما كان أعذب بحره وأصلب صخره »

وبهذا انتقلت كلمة الأدب الى معنى الظرف فى الخلق وحسن التناول للقول وكلمة التأديب الى العمل فى سبيل ذلك وطاوعتها كلمة التأدب ثقيل أدب يأدب من باب كرم فعل السجايا والطباع فهو أديب إذا حسن أدبه ومن ذلك قول سالم بن وابصة وهو إسلامى من قصيدة يحض فيها على مكارم الاخلاق والتظرف فى القول :

إذا شئت أن تدعى كريما مكرما   أديبا ظريفا عاقلا ماجدا حرا
إذا ما أتت من صاحب لك زلة   فكن أنت محتالا لزلته عذرا

ومن هنا بدأت كلمة الادب تنحرف عن معناها اللغوى الى هذا المعنى الاصطلاحى ولما أخذ القوم فى تدوين بعض العلوم من دينية ولسانية آخر عهد الدولة الاموية انحازت هذه الكلمة الى حذق علوم اللغة لما لها من الاثر فى تقويم اللسان واستكمال أداة البيان ثم كان تقدم العلوم وارتقاء المعارف أيام الدولة العباسية بما حدث من تقسيم وتفصيل واستجد من ترجمة ونقل فجعل التأديب مهنة تصدى لها المؤدبون وتصدرهم فيها الأئمة من الرواة والعلماء وقصر الادب على مأثور اللغة من نثر وشعر فعكف الناس على دراسته بهذا المعنى حتى وضعت له كتب خاصة عرفت بكتب الادب كما عرف غيرها بكتب الفقه أو النحو مثلا. وقد جارت كلمةَ الادب فى ذلك كلمة الاديب فوسم بها كل من حذق الادب على هذا الوجه وعرف من سائر العلوم ماهو للادب وسيلة أو للادب به علاقة وله منه فائدة إذ لا يجمل بالاديب أن يكون من غير الادب عاطلا فان الادب ثقافة خاصة لها حاجة وبها افتقار الى أن ترتكز على ثقافة عامة بدونها يقل بهاء الادب وتذهب حلاه

قلنا إن الادب صار على عهد الدولة العباسية مهنة تصدى لها المؤدبون وتصدرهم فى ذلك الأئمة من الرواة والعلماء ولكنهم لم يتجاوزوا كثيرا

مأثور اللغة فى روايته ونسبته على أيدى الرواة أو شرحه والافادة منه على أيدى الادباء فبقيت كتب الادب ما بين كتب رواية تخلص للمأثور مجردا وكتب دراية تبحث فى معناه إجمالا أو تفصيلا على أن الاخيرة لم تخل من من ابحاث خارجة عن معنى الادب وهى بنسبتها الى العلمية أحرى كأبحاث لغوية من فقه اللغة وأخرى نحوية أو صرفية من علمى النحو والصرف وهكذا

استمرت الابحاث جامدة عند معنى الادب دون تاريخه الذى لا يتحقق بغير التحليل والاستنباط وتتبع أطوار المأثور بأنواعه ضعة وارتفاعا وتلمس العلل لذلك والاسباب والانكباب على دراسة البيئات من عامة وخاصة لمعرفة ما أنتجته فى ذلك التاريخ من آثار. فتاريخ الادب وهو حياته يعتريه ما يعترى حياة الامم فى كل مظاهر التاريخ السياسى العام. نعم ان المتقدمين فى ذلك العهد وبعده قد عالجوا أبحاثا هى من حياة الادب فى الصميم كالموازنة بين شىء فى عهدين أو بين شاعر وآخر جملة أو فى قصيدين وكما لكلام فيما طرأ على اللغة بالاختلاط الا أن ذلك لم يتناول فى مجموعه كل ما لحياة الأدب من أبحاث كما لم ينسجم مرتبا فى سلك النظام الذى ينبغى أن تكون عليه تلك الابحاث. ثم لم يزل تاريخ الادب على تلك الحال من النقص فى بعض وجوهه وانتثاره كله على غير شخصية قائمة فى بطون الكتب الى أن هب المستشرقون يضعون أسسه ويرفعون قواعده وتوافروا على أبحاثه يثبتون أصولها ويفرعون الكثير من فروعها حتى أوصلوه الى صورة متميزة قائمة فاذا هو كما نراه الآن علم ذو نظام وترتيب وتقسيم وتبويب وكان لهم فى ذلك طريقان إما دراسته موضوعا موضوعا ينتقلون بكل موضوع من عصر الى عصر حتى يستتم أطواره ويستكمل ألوانه وهذا على غنائه قليل وإما دراسته عصرا عصرا يتناولون فى كل عصر موضوعات الادب واحدا واحدا كما هى الحال فى التاريخ السياسى العام وهذا هو المتبع والكثير

فعل المستشرقون ذلك وحينما أنشئت دار العلوم على نظارة على مبارك باشا للمعارف المصرية اذ ذاك كى تنهض باللغه العربية فى بلد انتهت اليه زعامة الناطقين بالضاد كان لزاما أن يكون تاريخ الادب من أول ما يعنى بدراسته فى هذا المعهد الجديد وفعلا كان وعهد بذلك أول الامر الى طائفة لعل أكثرهم غناء كما هو بلا شك أبقاهم أثرا المرحوم الشيخ حمزة فتح الله صاحب المواهب الفتحية باكورة ما ألف بالعربية فى هذا الباب لكن الشيخ طيب الله ثراه كأنه نظر فى الادب الى أنه فن لا يستند الى علم أو أن دراسته بعيدا عن تاريخه تكون الاديب فنهج فى مواهبه منهجا هو الى دراسة الادب أقرب منه الى دراسة تاريخه اذ لم يكد ينتهى على عجل منه فى تصديره ببضعة أبحاث عامة على الطراز القديم حتى انتقل مسرعا الى المأثور يؤدب به بنيه تأديبا جعل دعائمه الاربع القصائد فالمحاكات فى الشعر ثم الرسائل فالخطب فى النثر فشرح عشر قصائد أجرى بعدها عشر محاكيات ثم ساق من بعدهما عشر رسائل أتبعها مثلها من الخطب دون أن يتقيد فى ذلك بعصر معين أو يجرى على سنن خاص اذ كان مهيعه كما سبق الالمام بطائفة من المأثور تشرح وتدرس كما يتطلب المعنى ويقتضى الاستطراد على أنه لا يبعد أن يكون رحمه الله قد سيق الى ما فعل لا مدفوعا بتلك النظرة الفنية الآنفة بل بما تملكه من حب القديم يجرى على سننه ويهتدى بهديه وبخاصة اذ وجد طريقه معبدة أمامه بينا الجديد لا يزال مغلق السبل غير واضح الاعلام.

ولهذا لم تكد دراسة الادب تستند الى المرحوم حسن افندى توفيق أحد أبناء دار العلوم الذين زاولوا التدريس حقبة فى ألمانيا مهد الاستشراق عامة وفى العربية خاصة حتى أبرز لنا صورة لتاريخ الادب هى على صغرها يصح أن تكون بحق النموذج الاول فيه ويجب على كل دارس له من بعده مهما أبدع وفصل ان يكون موقفه منه موقف الحريرى فى مقاماته من البديع حيث يقول على سبيل التمثيل

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة　　بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا　　بكاها فقلت الفضل للمتقدم

الى هنا ولنا لفتة الى ما تقدم نوضح بها أمراً جديراً بالتوضيح ذلك أن الادب أدخل فى الفن منه الى العلم ولذا يواتى ذوى الطباع والاستعداد أكثر مما يواتى ذوى الجد والاجتهاد وان لنا على ذلك لآية بينة هى النبوغ فى باب من أبوابه أو اكثر وقلما يكون ذلك بالقليل من العمل يقوم به اناس دون اناس يصلون ليلهم بنهارهم كدحا ونصبا ثم هم لا يخرجون بصفة الاديب فتراهم لا يزالون بعيدين عن أن يجودوا نثرا أو شعرا فى أى باب يتخيرون على أن ملكة الادب مع هذا لا تتهيأ وسائلها ولا يتم نضجها بالاعتكاف على المأثور وحده يحفظ ويروى بل لا بد من درس تاريخه والاحتكام فى ذلك الى ماقعد من قواعد ووضع من نظم بحكم الظروف وتحت تأثير البيئات مع مسايرة عوامل النمو وطبائع الارتقاء. واذا تكون دراسة تاريخ الأدب وسيلة الى تكوين الأديب ويكون من وقف عند الوسيلة بعيدا عن الغاية جديرا باسم العالم دون الأديب .

هذا وإذ قلنا ان المتبع فى دراسة تاريخ الأدب لأية أمة أن يساير به تاريخها السياسى جنبا الى جنب فقد وجب اذا أن يكون أول عصر للأمة العربية عصرها الجاهلى ومدته مائتا سنة على الأكثر قبل الاسلام غير أن كلمة عن العرب فى موطنها وأصلها وأقسامها وقبائلها وأيامها واجبة قبل ذلك أن تكون .

العرب

موطنها — أصلها — أقسامها — مشهورات قبائلها — أيامها الكبرى ذوات الأثر فى الادب .

اولا - موطنها

موطن العرب الاول الذى منه درجوا فانتشروا فى الارض هو تلك الجزيرة المنسوبة اليهم فى الجنوب الغربى من آسيا وهى جزيرة متسعة الارجاء مترامية الاطراف يتصل بها من الغرب بحر القلزم المعروف بالبحر الاحمر ومن الشرق بحر فارس وعمان ومن الجنوب بحر الهند وتضرب شمالا إلى الشام والعراق فيدخل فيها جزء من كلتا باديتيهما وعد بعضهم منها أرض الجزيرة بين دجلة والفرات لسكنى العرب قديما إياها .

وهى تنقسم أربعة أقسام الحجاز واليمن ومع كل تهامته ثم العروض ونجد ويكاد يكون ذلك التقسيم طبيعيا فان الحجاز وهو سلسلة جبالها العظيمة يمتد فى الغرب منها على مقربة من البحر الاحمر من الجنوب إلى الشمال بين أرض منخفضة غربية هي التهائم وأخرى مرتفعة شرقية هى النجود وفى نحو الثلث من تلك السلسلة جنوبا تتفرع جبال تثليث قليلا إلى الشمال الشرقى. فما إلى الشمال منها الحجاز وتهامته. وما إلى الجنوب اليمن وتهامته غير أن اليمن تمتد على ساحل بحر الهند جنوبا إلى بحر عمان شرقا. ثم ما الى الشرق من الحجاز نجد الى بحر فارس وبادية العراق شرقا والى بادية الشام شمالا. أما الارض المعترضة بين

اليمن جنوبا ونجد غربا وشمالا وبحر فارس شرقا فهى العروض لاعتراضها بين كل هذه الاقسام ماعدا الحجاز الذى ينفصل عنها بجزء من نجد يمتد من جنوب جبال سلمى الى شرق جبال تثليث

وهذه كلمة عن كل قسم تنتظم حاله الطبيعية وما كان عليه سياسيا قبل الاسلام

١ - الحجاز

إقليم طيب الهواء ليس به كسائر بلاد العرب نهر يجرى ولكن فيه العيون المتفجرة من الجبال المتضمدة بالسيول والامطار الممتدة من واد الى وادو عليها قراهم ونباتهم من حبوب وخضر وفواكه ورياحين. ومن حيوانه الخيل الجيدة والابل والضأن والمعز ومن وحوشه بقر الوحش وحمره والغزلان والظباء والذئاب والضباع والثعالب والفهود والنمورة والاسود. أما طيوره فمنها الدجاج والحمام والرخم والنعام والحدأ واليوم والغربان

وللحجاز حاضرتان المدينة المنورة به ومكة المكرمة بتهامته

فمكة بالميم والباء ومن أسمائها أم القرى والبلد الامين وبها جميعا نطق القرآن الكريم وتسمى كذلك صلاح وقد ورد كثيرا فى الاشعار ولا سيما فى القديم. وهي واقعة فى بطن واد تحف به من جميع جهاته الجبال فأبو قبيس من الجنوب والشرق وحراء من الشرق والشمال وبه الغار الذى كان يتعبد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيقعان من الشمال والغرب وثور من الغرب والجنوب . وأول ما كانت سكنى مكة كانت لعاد ثم خلفهم عليها العمالقة ولما عظم أمر قحطان نزلها ابنه جرهم واليه تنسب جرهم الثانية لاجرهم عاد

فلم يزل أمر مكة بيدها حتى رفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل. وفى جرهم أصهر اسماعيل وبقى هناك فملكوه عليهم وانتقل الامر من بعده الى ابنه نابت ولكن جرهم أخذته ثانية ومنها انتقل الى خزاعة من الازد من قحطان أيضا فلم تزل فيهم مفاتيح البيت يقومون بسدانته حتى أعاده الى ذرية اسماعيل قصى ابن كلاب ثم أنشأ قصى دار الندوة بمكة فكانت محل تشاور قريش وكان اليه أمرهم حتى مات فانتقلت الرياسة الى ابنه عبد مناف ولكن بقيت سدانة البيت مع ابنه عبد الدار قيل لأنه هو الذى انطلق بمفاتيحه ففتحه لقريش حين أخذها أبوه من خزاعة. ومن عبد مناف انتقلت الرياسة الى هاشم بن عبد مناف فالى عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فتح مكة بعد الاسلام فانتهت اليه رياسة القديم والحديث. ومما يذكر هنا اقراره صلى الله عليه وسلم بنى عبد الدار على سدانة البيت كما كانت لهم من قبل

هذا وقد أكسب مكة وضع البيت بها منذ عهد ابراهيم لدى العرب عامة حرمة دونها كل حرمة وتقديسا ما أوغله فى القلوب من تقديس فكان الملوك من حمير وكندة ولخم وغسان يحجون اليها ويدينون لقريش بها ويكفى من تعظيمهم إياها أن جعلوا حولها شقة حراما يحرم صيدها وقطع نباتها. ومما ضاعف فى عظمتها وفى حرمة البيت بها ما فعل الله بأصحاب الفيل وقد جاء أبرهة يقودهم يريد هدم الكعبة وصرف العرب عنها الى حج القليس باليمن وهى كنيسة ابتناها بصنعاء وبالغ فى تجميلها فارسل الله عليه طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول. ثم زادت تلك العظمة قدسا وجلالا بمجىء

الاسلام معظما أمر هذا البيت وجاعلا الحج اليه فريضة على كل مسلم ومسلمة استطاعا اليه سبيلا

والمدينة هي الحاضرة الثانية وقد غلب عليها هذا الاسم واسمها القديم يثرب وبهما نطق القرآن الكريم وقد سماها الله تعالى الدار فى قوله (والذين تبوءوا الدار والايمان) وسماها النبي صلى الله عليه وسلم طيبة وطابة من حسن الرائحة أو تمام النقاء . وهى تقع فى مستو من الارض شماله جبل أحد وجنوبه جبل عير وشرقه البقيع وغربه العقيق. وهى قديمة العمارة كمكة قيل أول من نزلها يثرب ابن عبيــل من العمالقة وبه سميت ثم خلف العمالقة عليها قوم من بنى اسرائيــل نزحوا اليها على عهد موسى بن عمران . ومازالوا بها حتى كان سيل العرم باليمن وتفرق من أهله كثير كان منهم الاوس والخزرج الذين امتلكوها على بنى اسرائيل فلم تزل بيدهم حتى هاجر اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكما شرف الله مكة بالحج الى البيت بعد الاسلام شرف المدينة بثواء جثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ومعه كثير من جلة الصحابة والانصار

هذا وبالحجاز غير حاضرتيه من المدن والقرى والاودية كثير

منها الطائف فى بطن من جبل غزوان شرق مكة وهى شديدة البرودة كثيرة الفاكهة وأهلها من ثقيف وقيــل ثقيف من بقايا ثمود وبهذا كان يعير الثقفيون وكان الحجاج من الذين يدفعون ذلك وهى احدي القريتين المذكورتين فى قوله تعالى (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) فالقريتان مكة والطائف والرجلان الوليد بن المغيرة من مكة وعروة بن مسعود من الطائف . وبين مكة والطائف واد كثير النخل هو عكاظ وبه كانت تقوم سوق العرب الكلامية كما سيأتي بعد .

ومنها جدة فرضة مكة على ساحل بحر القلزم ميناء عظيمة كانت تنتهى اليها

المراكب من مصر واليمن وهى ميقات من قطع البحر من جهة عيذاب. «وهى المدينة التى خلفتها القصير»

ومنها خيبر إلى الشمال الشرقى من المدينة وهى مدينة قديمة ذات حصون كانت لبنى عنيزة من اليهود قبل الاسلام والخيبر فى لغتهم الحصن ولبنى قريظة والنضير بعده وهى معروفة برداءة الهواء وكثرة الوباء وبحماها يضرب المثل قال الشاعر

وقفت بها أبكى وأشعر سخنة كما اعتاد محموما بخيبر صالب

وكانت كثيرة النخل يحمل تمرها الى الجهات القصوى وفى ذلك يقول الشاعر :—

فانك واستبضاعك الشعر نحونا كمستبضع تمرا الى أرض خيبرا

وعلى مقربة من خيبر الى الشمال الغربي وادى القري وبه الحجر نزل ثمود فى القديم. وبين خيبر والمدينة قرية فدك

وفرضة المدينة الجار ومقامها تقوم ينبع الآن. وعلى مقربة منها إلى الجنوب الشرقى ماء بدر الذى تنسب اليه الغزوة الكبرى بعد الاسلام.

٢ — اليمن

اليمن اقليم متسع النواحى كثير الخيرات تسمى أرضه الخضراء لكثرة مزارعها ونخيلها وأشجارها يخرج من الحبوب والفاكهة ماتخرج المنطقتان المعتدلة والحارة وحيوانه حيوان الحجاز يزيد فى أهليه البقر والبغال والحمر وفى بريه الزراف والقردة فضلا على ما بأرضه من المعادن الكثيرة المتنوعة.

وهو ينقسم بضعة أقسام. فاليمن الاصلية على امتداد الحجاز جنوبا جبالا وتهائم وإلى شمالها الشرقى نجران كما إلى جنوبها الغربى حضرموت الممتدة

طويلا على ساحل بحر الهند وعلى هذا الساحل يمتد الشحر فمهرة فظفار ثم عمان المتصلة بساحل عمان وفارس . وفيما بين هذه الاقسام كلها غربا وجنوبا وشرقا والعروض شمالا توجد صحراء الاحقاف المعروفة بالربع الخالي وبها كان أصل منازل عاد ولا يعرف عنها الآن سوي القليل.

وقد شهدت اليمن حضارة قديمة تضارع في جلالها وعظمتها أقدم الحضارات وأول ماعرف فيها الملك للعرب كان لعاد وهذه هي الطبقة العادية وخلفها القحطانيون وعظم ملكهم في الحميريين والتبابعة من بعدهم ومنهم بلقيس ولم يزل ملكهم في سلطان وعتاد حتى جاء السيل فتفرق كثير من شعوبهم في سائر أنحاء الجزيرة وضعف أمر من بقي منهم باليمن ومن ثم تمكنت الحبشة من امتلاكها ثم الفرس من بعدها وبها كانوا الى الاسلام .

واليمن (شأن كل بلاد كثيرة الخيرات قديمة العمران) ملأى بالمدن التاريخية ذات الحصون المنيعة والقصور المنيفة والآثار التى تشهد على رقي عادي له في التاريخ مقام كبير وقد بدأت المكشوفات الحديثة تخبر عما هو هنالك دفين.

فحاضرتها صنعاء في جنوب اليمن الاصلية وهي من أحسن البلاد سكانا وأطيبها هواء تكاد تحاكى دمشق في كثرة مياهها وأشجارها وبظاهرها قصر غمدان الكثير ذكره في الاشعار .

ومن مدنها مأرب الى الجنوب الشرقي من صنعاء وكانت من أجمل بلاد اليمن حسن تربة ولطف هواء وهي الموصوفة في القرآن بالبلدة الطيبة وتسمى أيضاً سبأ نسبة الى بانيها وبنو سبأ هذا هم الذين أخبر القرآن أن كان لسكنهم فيها آية جنتان عن يمين وشمال فأعرضوا فارسل الله عليهم سيل العرم وبدلهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل

ومنها عدن وهي فرضتها على ساحل البحر المحيط وكانت أعظم المراسي

ومحط التجار من عامة الاقطار « الحجاز والحبشة والسند والهند وجزائر المحيط والصين »

٣ ـ العروض

والعروض على ما تقدم من موقعها تنقسم قسمين داخلى هو اليمامة وساحلى هو البحرين. فاليمامة أكثر بلاد العرب نخيلا ومنها فى القديم زرقاء اليمامة المضروب بها المثل فى حدة البصر وفى الحديث مسيلمة الكذاب وقصبتها اليمامة. والبحرين كثيرة النخل كذلك وفيها غيره الحب والفاكهة ومن مدنها الداخلية هجر المضروب بها المثل فى تصدير التمر ومن الساحلية القطيف.

وكانت اليمامة فى القديم لجديس وطسم والبحرين لعاد وجاء من بعدهم فى الاثنتين القحطانيون ومن كان بعدهم على اليمن الى أن جاء الاسلام إلا أن اليمامة وحدها آخر عهد الفرس كانت لبنى حنيفة وآخرهم هوذة بن على الذى كتب اليه النبي صلى الله عليه وسلم كما كتب الى الملوك

٤ ـ نجد

أما نجد فكالحجاز نباتا وحيوانا إلا أنها أحسن أرض فى جزيرة العرب هواء وأطيبها شميما ولذلك انبرى الشعراء قديما وحديثا يلهجون بذكراها ويترنمون بريا عطرها وشذاها قال الشاعر

أقول لصاحبي والعيس تهوى بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
ألا ياحبذا نفحات نجد وريا روضه بعد القطار
وأهلك إذ يحل الحى نجداً وأنت على زمانك غير زار
شهور ينقضين وما شعرنا بانصاف لهن ولا سرار

وهي تنقسم قسمين نجد السافلة وهي ماولي العراق وبها صحراء الدهناء ونجد العالية وهي ماولي الحجاز وفيها أجأ وسلمى جبلا طيئ الوارد ذكرهما فى كثير من الاشعار ومنها أرض العالية التي كان يحميها كليب التغلبي ومن أجلها قتل فنشبت حرب البسوس من بعده أعواما طويلة بين بكر وتغلب ابنى وائل.

هذا ولا تعلم لنجـد سكنى فى القديم قبـل ولد عدنان ومن خالطهم من القحطانيين بعد السيل

مدن البوادى

ومن المدن العربية ببادية الشام تيماء بالغرب منها وكانت حاضرة طيئ وبها الابلق الفرد حصن السموءل بن عاديا ثم دومة الجندل بالوسط وكانت لبنى كلب وفيها كان التحكيم بين علي ومعاوية.

ومنها ببادية العراق الحيرة مقام الملوك اللخميين وفيها الخورنق والسدير المعروفان ثم الانبار وكان الاكاسرة يدخرون بها الحبوب كيلا تسوس .

ومنها بالجزيرة ديار بكر وربيعة ومضر الثلاث نسبة الى من سكنها من أبناء هؤلاء على أنهم سكنوا معها غيرها هناك كالموصل ونصيبين كما نزح الى الجزيرة غيرهم من القبائل الاخرى كالطائيين .

هذا ومما كان يدور على ألسنة الشعراء كثيرا ذكر الدارات والبرق كدارة جلجل وبرقة ثهمد يقصدون بالاولى كل أرض مستديرة بين جبال تكون ذات سهولة وبياض وبالثانية ما كان فيها غلظ وبريق من حجارة ورمال تختلطان بالطين . وقد ذكر صاحب القاموس أن البرق تنيف على المائة وعددها منسوبة الى ما أضيفت اليه مرتبا على الحروف كما ذكر أن الدارات تنيف على المائة والعشر وذكرها كلها كذلك بعد أن قال رحمه الله انها لم تجتمع لغيره مع بحثهم وتنقيرهم فجزاه الله خيرا .

ثانياً ـ أصلها وأقسامها ومشهورات قبائلها

العرب ذلكم الجيل من الناس الذين كان لسانهم العربية وكانت سكناهم الاولى تلك الجزيرة المنسوبة اليهم سيان فى ذلك الحضر سكان المدن والبدو الرحل الذين اختصو باسم الاعراب فأطلق اسم العرب لذلك على الحضر أو كاد.

والعرب أمة سامية ترجع فى أصل نسبها الى سام بن نوح عليه السلام وقد اعتاد المؤرخون تقسيمها قسمين عربا بائدة وهم الذين بادت ذراريهم وانقرضت تفاصيل أخبارهم قبل مجىء الاسلام بقرون وأخرى باقية وهم الذين جاء الاسلام والجزيرة العربية تعج بأبنائهم وتضيق عن أخبارهم

فالعرب البائدة وقد يقال لهم العاربة أو العرباء يرجعون عن قرب إلى إرم ابن سام والمشهور من قبائلهم عاد بن عوص بن إرم وثمود بن جاثر بن إرم وعبد ضخم وجديس ابنا إرم وطسم وعمليق ابنا لاوذ بن إرم .

فعاد كانت منازلهم الاولى بالاحقاف وهم الذين بعث الله اليهم نبيه هودا عليه السلام فلم يؤمنوا فأهلكهم بالريح العقيم سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما كما أخبر القرآن وكانوا قد بلغوا من القوة واتخاذ المصانع للخلود مبلغا عظيما ولذلك يقال للشىء يكون قديما وعظيما عادى نسبة اليهم

وثمود كانت منازلهم الحجر بوادى القرى وقد بعث الله اليهم نبيه صالحا عليه السلام فلم يؤمنوا فأهلكهم بالصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كما جاء بذلك أيضا القرآن ولم يكونوا أقل من عاد قوة وعتادا فقد جابوا الصخر بالواد وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا فارهين

وعبد ضخم كانوا يسكنون الطائف فهلكوا فيمن هلك ويقال إنهم أول

من وضعوا الخط العربى كما يقال إنهم يرجعون الى ثمود ولذلك قد تنسب ثقيف بالطائف الى بقايا ثمود التى كانت بعيدة عن مهلكهم

وجديس وطسم ويقال إنهما من عاد كانت منازلهم باليمامة فأباد بعضهم بعضا بالحرب فى أخبار طويلة يذكرها القصاصون ليست محل ثقة واعتقاد

وعمليق كانت أمة عظيمة يضرب بها المثل فى الطول وتفرقت منها شعوب سكنت عمان والبحرين والحجاز والعراق والجزيرة والشام ومصر ومنهم بالاخيرة فراعنة الرعاة وقد بادوا جميعا أو اختفت شخصياتهم فى أمم غيرهم

ومن القبائل التى تنسب إلى البائدة أيضا جرهم الاولى تمييزا لها عن جرهم الثانية وقد يكون التمييز بجرهم عاد وجرهم قحطان وكذلك أميم وجاسم ووبار بل ومدين أبناء مدين بن ابراهيم على بعض الاقوال وهو ضعيف

والعرب الباقية قسمان قحطانيون ويقال لهم المتعربة أو المستعربة عند من وسم الاولى بالعاربة والعرباء كما يقال لهم العاربة أو العرباء عند من قصر على الاولى لفظ البائدة وهم منسوبون إلى قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام .
وعدنانيون ويقال لهم المتعربة أو المستعربة كالقحطانيين كما يقال لهم المستعربة فقط عند من خص القحطانيين بالمتعربة وهم منسوبون إلى عدنان بن أدد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام وأبو ابراهيم آزر أو تارح بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام وليس الى النسب فيما خلف عدنان طريق صحيح انما المجمع عليه أن اسماعيل ابن ابراهيم وابراهيم يرجع الى سام فهذان الشعبان الباقيان ساميان كالشعب البائد واذا تكون الامة العربية جمعاء سامية من غير ما خلاف فيلتقى العدنانيون بالقحطانيين فى عابر والقحطانيون بالبائدة فى سام

القحطانيون

ولد قحطان يعرب وجرهم فانتقل جرهم الى الحجاز كما سبق ولما جاء اسماعيل مكة خالطه بنوه بها واستوطنوها معه وهم جرهم الثانية وبقى يعرب باليمن فولد يشجب وولد يشجب سبأ وأنجب سبأ فى اثنين حمير وكهلان واليهما ترجع جميع قبائل اليمن

فالى حمير ترجع قضاعة والمشهور من أحيائها سبعة جرم ونهد وبقيتا باليمن وعذرة بجنوب الحجاز وجهينة وبلى شماله بالترتيب وبهراء شمالهما فيه وعلى شاطئ الفرات ثم كلب بدومة الجندل وتبوك وأطراف الشام. والى عذرة ينسب العشق والتتيم ومما يحكى فى هذا أنه قيل لرجل منهم ما بال العشق يقتلكم يا بنى عذرة فقال لان فينا عفة وجمالا وقيل لآخر منهم ما بال الرجل منكم يموت فى هوى امرأة انما ذلك ضعف فيكم يا بنى عذرة فقال أما والله لو رأيتم النواظر الدعج تحتها المباسم الفلج فوقها الحواجب الشرج لاتخذتموها اللات والعزى

وذكر بعض النسابة أن قضاعة من العدنانية والصحيح ما تقدم فقضاعة واسمه عمرو هو ابن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير ولعل ذلك شبه عليهم من أن أم قضاعة مات عنها مالك وهى حامل فيه فتزوجها معد بن عدنان فولدت قضاعة على فراشه فتبناه فنسب اليه ثم رحل قضاعة الى اليمن فكان له ملك بالشحر ويقال ان له قبرا معروفا بجبل هناك

والى كهلان ترجع شعوب كثيرة كانوا يتداولون الملك وبنى حمير باليمن ثم انفردت بنو حمير به وبقيت بطون كهلان على كثرتها تحت إمرتهم الى أن تقاصر ملك حمير فكانت الرياسة بالبادية لبنى كهلان. وأشهر أحياء كهلان أحد عشر «١» طيء وهم أكثر أحياء اليمن بطونا فاليهم يرجع خمسة عشر بطنا ترجع

منهم كثير الى الحجاز ونجد فغلبوا بنى أسد على أجأ وسلمى فعرفا بجبلى طيء وخرج بنو أسد الى الشرق من ذلك والى بولان أحد بطون طيء ينسب الرجال الذين قيل فيهم إنهم أول من كتبوا بالخط العربى بعد العرب الاولى«٢»الازدوهم بطون كثيرة باليمن وعمان ومنهم خزاعة بمكة والاوس والخزرج بالمدينة والغسانيون آل جفنة بالشام«٣»لخم ومنهم المناذرة ملوك الحيرة بالعراق«٤» كندةوكان لهم ملك قديم بحضرموت وآخر بعده بنجد ودومة وكان آخر ملوكه حجر والد امرئ القيس«٥» عاملة بشمال الشام . ثم مذحج وهمدان ومراد وجذام وأشعر وأنمار ولم تعرف لبطونهم فى القديم خارج اليمن ديار .

وبعض النسابين يقولون إن أنمار اليمن أولاد أنمار بن نزار العدناني ولكنهم أقاموا بها فنسبوا اليها والصحيح أنهم من اليمن وجاء اللبس من أنه كان لانمار بن نزار بنت زوجها من أراش بن عمرو الكهلانى فولدت له ولدا أسماه على اسم جده لامه.فأنمار اليمن إذا هم بنو أنمار بن أراش وأنمار الحجاز بنو أنمار بن نزار على أنه قيل إن أنمار بن نزار لاعقب له إلا هـذه البنت والانمار فى قحطان دون عدنان وفى هذا وجاهه .

العدنانيون

ولد عدنان معدا وولد معد نزارا وأنجب نزار فى أنمار وإياد وربيعة ومضر.

فأنمار سبق القول فيه والراجح أنه لم يعقب الا فى تلك البنت التى زوجها من أراش الكهلانى كما سبق وأنمار لليمن دون الحجاز .

وإياد فارق الحجاز وسار بأهله الى أطراف العراق وبها أقام ولم يزل النسب راجعاً إليه فى كل بنيه اذ لم يصلوا إلى كثرة على تطاول الايام .

وربيعة أعقب فى ضبيعة بالحجاز ولم تكثر بطونها وفى أسد ربيعة وفيها كثرة فمنها عنزة بخيبر وجديلة ومن جديلة عبد القيس بتهامة نجد والبحرين والنمر بالجزيرة ووائل ومن وائل تغلب بالبحرين ونجد والحجاز والشام . وبكر ومن بكر بنو حنيفة وبنو عجل باليمامة وبنو شيبان بالبحرين ومنهم سدوس ومضر أعقب فى قيس عيلان والياس

ومن قيس عيلان جاءت الكثرة التى لم تبن معها بطون ربيعة فغلبت قيس على سائر العدنانية حتى قيل قيس وممن فمنها عدوان بالطائف وسليم بعالية نجد قرب خيبر ومازن وباهلة باليمامة وغطفان بين جبلى طيء ووادى القرى الى المدينة ومنها أشجع وعبس وذبيان ومن ذبيان فزارة ومن فزارة بدر ومازن الثانية ثم من قيس أيضا هوازن وهى أكثرها بطونا فمنها ثقيف على الاصح بالطائف وبنو سعد بالحجاز وبنو جشم بالسروات وهى تلال تفصل بين نجد وتهامته من البحرين الى الشام ثم بنو عامر باليمامة والبحرين ونجد والحجاز والشام والجزيرة ومنهم على التسلسل بنو كلاب فبنو هلال فبنو نمير فبنو عقيل

أما الياس فاليه يرجع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أعقب فى قمعة وطابخة ومدركة . فقمعة لم يشتهر عقبه وطابخة منه مزينة بشمال الحجاز وضبة بشمال نجد وبالعراق وتميم بشرق نجد وشمالها ومن تميم العنبر وحنظلة ومن حنظلة يربوع ومن يربوع العنبر الثانية . بقى مدركة ومنه هذيل بالطائف وخزيمة ومنها الهون بين مكة والمدينة ومن الهون عضد والديش المعروفان بالقارة وكانوا رماة . ومن خزيمة أيضا أسد وفيها كاهل ودودان وكانوا بأجأ وسلمى الى أن أجلتهم عنها الى الشرق طيء كما سبق ثم كنانة بمكة وتهامة الحجاز ومنها عامر وعمرو وملكان ومالك وعبد مناة والنضر ومن مالك فراس ومن عبد مناة غفار وبكر وليث والحارث ومدلج وضمرة أما النضر وهو قريش فابنه مالك وابن مالك فهر وأبناء فهر غالب والحارث ومحارب وابنا

غالب لؤى والادرم وأبناء لؤى كعب وسعد وخزيمة وعامر وابنا كعب مرة وعدى وأبناء مرة كلاب وتيم ويقظة وابنا كلاب قصى وزهرة وأبناء قصى عبد مناف وعبد الدار وعبد العزي وأبناء عبد مناف هاشم عبد شمس ونوفل والمطلب وأبناء هاشم عبد المطلب ونضلة وأسد وصيفى وأبو صيفى وأبناء عبد المطلب عبد الله والد رسول خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم والعباس والد الخلفاء العباسيين وأبو طالب والد أمير المؤمنين على بن أبي طالب وحمزة وانقرض عقبه وأبو لهب والحارث أعقبا ولم يعرف عقبهما ثم الزبير وعبد الكعبة وضرار وحجل وقثم والغيداق ولم يعقبوا

ثالثا — أيامها الكبرى ذوات الاثر فى الادب

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه لم تتوافر لدي أمة ما أسباب التناحر والتقاتل والتنابذ والتطاحن بقدر ما توافرت لدى أمة العرب فى جاهليتها وبخاصة الشعوب العدنانية منها فقد انتشروا فى أنحاء الجزيرة العربية يطلبون لماشيتهم كلأها وينتجعون لارتياد مواقع الغيث أنحاءها فاذا ما أمحل بقبيلة موطن طلبوا آخر ينتزعونه من غيرهم انتزاعا بأسنة الرماح وظبات السيوف وما أسرع ما يهرعون الى الغارة على عدوهم يلهبونها والى ظهور خيولهم يعتلونها فيكون الطعن والنزال والضرب والقتال ويكفى أن تكون غارة بين قبيلتين أساتقوم له الحرب على قدم وساق فتبقى آمادا وآجالا يشب أوارها بين آونة وأخرى طلبا للثأرات أو انتقاما بمال يغصب وقد يستجير الطالب بقبيل يأبي الا أن ينصره قياما بحق الجوار ويدافع عنه كما يدافع عن نفسه فيغزى لذلك ويقاتل وتكون هناك حرب أخرى وغالبا ينضم فيها حليف لحليف على أنه لم تخل الجزيرة العربية من حروب حفز اليها الدفاع عن ملك أو الانتصار لمتبوع أو التعصب على عمومه أو فى خصوصه ولا نظن أن أيام العرب الكبرى الى غير ذلك ترجع فطلب العيش والاخذ بالثأر وحماية الجار ومساعدة الحليف ثم ما قفينا به من الدفاع عن الملك

ونصرة المتبوع والتعصب كل أولئك كان من أجله تقوم الحروب

وإذ سبق هنا أن العدنانية كانت المسعر لهذه الحروب وتقدم فى ذكر الانساب أن كثرتها كانت تزخر بتغلب وبكر فى ربيعة وبهوازن وغطفان وجشم وسليم فى قيس وبتميم فى طابخة ثم بكنانة وقريش فى مدركة فانا سائقون لذلك أشهر حروب هذه القبائل مسبوقة ببعض ما كان بين نزار واليمن ومتلوة ببعض آخر هو ما كان بين العرب والفرس مع ذكر بعض ما كان لليمن خلال ذلك لمناسبة

بين نزار واليمن

يوم الكلاب الثاني — بين مذحج وتميم وسببه أن تميما نزلت الكلاب وهو ماء بين اليمن والبحرين طوله مسيرة يوم فعلمت مذحج فأغارت عليها فدارت الدائرة على مذحج وكان رئيس تميم قيس بن عاصم ورئيس مذحج عبد يغوث وقد أسر وفى أسره هذا قال قصيدته المشهورة التى مطلعها:

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا فما لكما فى اللوم خير ولا ليا

فالها يلوم قومه على هزيمتهم ويعتذر لنفسه عن أسره ذاكرا ما كان له قبل من بلاء ومعددا بعض مفاخره الماضية كالبنى تميم مفاخرجة بهذا اليوم الذى نادى فيه قيس وقد ولت مذحج الادبار ياآل تميم لا تقتلوا الا فارسا فان الرجالة لكم ثم جعل يرتجز ويقول:

لما تولوا عصبا هواربا أقسمت لا أطعن الا راكبا

إني وجدت الطعن فيهم صائبا

يوم خزازى — ويقال له خزاز جبل يتوسط الطريق بين مكة والبصرة وهو من أقدم الايام بين نزار واليمن وكان رئيس نزار فيه على غلبة الظن كليبا التغلبي أو هو قد أبلى فيه بلاء بينا وهزمت اليمن فيه هزيمة نكراء

وبعده خرجت نزار عن سلطة اليمن ونقضت جباية تبابعته بعد أن كان رسولهم يأتى ومعه كاتب وطنفسة يجلس عليها فيأخذ من أموال نزار ما يشاء وليس بمعروف عن هذا اليوم شعر يعاصره ولكنه ذكر على ألسنة الشعراء بعد كعمرو بن كلثوم التغلبي حيث يقول :

ونحن غداة أوقد فى خزازى رفدنا فوق رفد الرافدينا
فكنا الايمنين اذا التقينا وكان الايسرين بنو أبينا
فصالو صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا . بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

حروب ربيعة

أهمها البسوس بين تغلب وبكر ابنى وائل وذلك أن تغلب أخذت بعد خزازي مكاناً علياً فى العرب وملك كليبها فعظم شانه وعلا علوا كبيرا وبلغ من كبريائه أن صار يحمى مواقع الغيث والوحش فيقول كلأ كذا فى حماى ووحش كذا فى جوارى وحدث أن كانت البسوس بنت منقذ خالة جساس ابن مرة عند ابن أختها هذا وكانت لها ناقة رأت أبل كليب ترد فوردت معها فرماها كليب بسهم خرم ضرعها فولت وهو يشخب لبنا فلما رأتها البسوس قذفت خمارها عن رأسها وذهبت الى جساس صائحة واذل جاراه فأحمسه ذلك على ما كان من ظلم كليب وحسد بكر لتغلب فذهب الى كليب مسرعا فطعنه فقصم صلبه وكان معه عمرو بن الحارث الشيبانى فطعنه فقطع بطنه فوقع يفحص برجله وقيل فى مضرب المثل (تجاوزت شبيثا والأحص) وهما ماءان إن قاتله جساس إذ قال له كليب حين وقع أغثنى بشربة من ماء . وفى تصداق ذلك يقول عمرو بن الاهتم

وان كليبا كان يظلم قومه　　فادركه مثل الذى تريان
فلما حشاه الرمح كف ابن عمه　　تذكر ظلم الاهل أى أوان
وقال لجساس أغثنى بشربة　　والا فخبر من رأيت مكانى
فقال تجاوزت الاحص وماءه　　وبطن شبيث وهو غير زؤان

فهاجت بمقتل كليب حرب البسوس التى مكثت طويلا من الدهر بين تغلب وبكر ابنى وائل وكان المهلهل أخو كليب المعروف بالزير لما كان عليه من اللهو واستدامة التحدث الى النساء حامل لوائها على بكر وشيبان ومن والاهما لا يقنعه فى ذلك مقنع ولا يقف فى القتال عند حد . يدل على ذلك أمثال قوله

أكثرت قتل بنى بكر بربهم　　حتى بكيت وما يبكى لهم أحد
آليت بالله لا أرضى بقتلهم　　حتى أبهرج بكرا أينما وجدوا

وقوله

قتلوا كليبا ثم قالوا أربعوا　　كذبوا ورب الحل والاحرام
حتى تبيد قبائل وقبيلة　　ويعض كل مثقف بالهام
وتقوم ربات الخدور حواسرا　　يمسحن عرض ذوائب الايتام

وقوله

يال بكر أنشروا لى كليبا　　يال بكر أين أين الفرار

ولما أسرف مهلهل فى الدماء وكانت لتغلب على بكر أيام كثيرة كالذنائب وعنيزة والحنو ثم واردات الذى قتل فيه بجير بن الحارث بن عباد أو ابن أخيه وكان الحارث اعتزل تلك الحروب فلما بلغه قتل بجير هذا قال نعم القتيل قتيلا أصلح بين ابنى وائل وظن أن المهلهل أدرك به ثأر كليب وجعله له كفؤا فقيل له إن مهلهلا لما قتل بجيرا قال له « بؤ بشسع نعل كليب » فغضب الحارث وتولى

أمر بكر ولم يزل يقتل تغلب حتى تفرقت وهرب المهلهل وفى ذلك يقول الحارث وكانت له فرس تدعى النعامه

قربا مربط النعامة منى إن بيع الكريم بالشسع غالى
قربا مربط النعامة منى لقحت حرب وائل عن حيال
لم أكن من جناتها علم الله وإني بحرها اليوم صالى
قرباها فى مقربات عجال عابسات يثبن مثل السعالى
لابجير أغنى قتيلا ولا رهط كليب تزاجروا عن ضلال
يابجير الخيرات لاصلح حتى نملأ البيد من رءوس الرجال

وكان اليوم الذى انتهى بتفرق تغلب وهرب مهلهل يوم قضة وهو يوم تحلاق اللمم وبه تفخر بكر. ولما هرب مهلهل انتهي الى جنب وهم بطن من مذحج وكانت معه ابنته فخطبوها فتمنع فاجبروه وأمهروها جلودا وفى ذلك يقول متحسرا على عزفات

أعزز على تغلب بما لقيت أخت بنى الاكرمين من جشم
أنكحها فقدها الاراقم فى جنب وكان الحباء من أدم
لو بأبانين جاء يخطبها زمل ما أنف خاطب بدم

ولمهلهل فى رثاء كليب وبكائه القصائد الطويله منها التى مطلعها

أليلتنا بذى حسم أنيرى اذا أنت انقضيت فلا تحورى

والتى مطلعها

بت ليلى بالانعمين طويلا أرقب النجم ساهرا أن يزولا

والتى يقول فيها

كليب لاخير فى الدنيا ومن فيها اذ أنت خليتها فيمن يخليها

ومما يذكر من شعر العاطفة المتحيرة هنا شعر جليلة أخت جساس وامرأة كليب اذ قالت لها اخت كليب ياهذه اخرجى عن مأتمنا فانت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا وشيعتها بقولها حين خرجت «رحلة المعتدى وفراق الشامت» فقالت جليلة وكيف تشمت الحرة بهتك سترها وترقب وترها أفلا تقولين «نفرة الحياء وخوف الاعتداء» ثم أنشأت تقول

يا بنة الأقوام ان شئت فلا تعجلى باللوم حتى تسألى
فاذا أنت تبينت الذي يوجب اللوم فلومى واعذلى
ان تكن أخت امرىء ليمت على شفق منها عليه فافعلى
جل عندى فعل جساس فيا حسرتى عما انجلى أو ينجلى
فعل جساس على وجدى به قاصم ظهرى ومدن أجلى
يا قتيلا قوض الدهر به سقف بيتى جميعا من عل
هدم البيت الذى استحدثته وانثنى فى هدم بيتى الاول
يانسائى دونكن اليوم قد خصنى الدهر برزء معضل
خصنى قتل كليب بلظى من ورائى ولظى من أسفلى
ليس من يبكى ليوميه كمن إنما يبكى ليوم مقبل
يشتفى المدرك بالثأر وفى دركى ثارى ثكل المثكل
انى قاتلة مقتولة ولعل الله أن يرتاح لى

بين ربيعة وغيرها

من أعرف الحروب بين ربيعة وغيرها ما كان بينها وبين تميم وذلك أن بكرا اعتادت أن تنتجع أرض تميم ترعى بها فاذا ما أرادت الرجوع لم تدع عورة تصيبها ولا شيئا تظفر به الا اكتسحته وكان ذلك منذ القديم فاجمعت

تميم رأيها على مدافعة بكر وبهذا كانت لاتنطفيء بينهما نارحرب ولهذا كانت تميم تنضم الى تغلب على بكر فى حرب البسوس ثم إنالغلبة اكثر الايام كانت لتميم وان كانت الأيام حافلة بالمفاخر الكلا الطرفين

فمن أيام بكر على تميم يوم الزورين وهما جملان أتت بهما تميم مقرونين مقيدين وقالوا لا نولى حتى يولى هذان «والبعيراذاقيد فهو زورأو زوير مأخوذ من الزيار وهو مايزير به البيطار الدابة» فاخبرت بكر رئيسها وهو عمرو بن قيس بن مسعود الاصم بذلك فقال وأنا زويركم إن خشوها فخشوني وإن عقروها فاعقروني ثم التقوا فاقتتلوا قتالا شديدا انهزمت فيه بنو تميم وقتل منهم أبو الرئيس النهشلي وغيره كثير وأخذت بكرالزورين وفى ذلك يقول الاغلب العجلى

جاءوا بزوريهم وجئنا بالاصم شيخ لنا قد كان من عهد إرم
فكر بالسيف اذا الرمح انحطم كهمة الليث اذا ما الليث هم
كانت تميم معشرا ذوى كرم مخلصة من الغلاصم العصم
قد نفخوا لو ينفخون فى فحم وصبروا لو صبروا على أمم
اذ ركبت ضبة أعجاز النعم فلم تدع ساق لها ولا قدم

ويقول رجل من بنى سدوس

ياسلم إن تسالى عنا فلا كشف عند اللقاء ولسنا بالمقاريف
نحن الذين هزمنا يوم صبحنا جيش الزويرين فى جمع الاحاليف
ظلوا وظلنا نكر الخيل وسطهم بالشيب منا وبالمرد الغطاريف

ومن أيام تميم على بكر يوم بلقاء الحسن «والحسن جبل» وفيه قتل بسطام بن قيس سيد بنى شيبان قتله عاصم بن خليفة الضبى فقال ابن غنمة الضبى يرثيه وكان

مجاورا اذ ذاك فى بنى شيبان وخاف أن يقتلوه

لأم الارض ويل ما أجنت   بحيث أضر بالحسن السبيل
يقسم ماله فينا ويدعو   أبا الصهباء إذ جنح الاصيل
فان تجزع عليه بنو أبيه   فقد فجعوا وحل بهم جليل
بمطعام إذا الاشوال راحت   الى الحجرات ليس لها فصيل

ومنها البيت المشهور يخاطبه فيه

لك المرباع منها والصفايا   وحكمك والنشيطة والفضول .

ومما يعد من حروب ربيعة وان كان الباعث فيه لا يعدو الدفاع عن ملك ما كان بين شرحبيل ومسلمة ابنى الحارث بن عمرو الكندي وكان قد ملك على بكر بن وائل برضاهم من قبل أحد التبابعة لما تقاطعت أرحامها وغلبتها سفهاؤها فأحسن قيادها وغاب بها على كثير مما كان فى أيدى ملوك الحيرة اللخميين وملوك الشام الغسانيين فلما مات اختلف ابناه هذان على الملك فكانت بكر مع شرحبيل أكبر الاخوين وانضمت تغلب نكاية فى بكر الى مسلمة وكان يوم الكلاب الاول وفيه قتل شرحبيل

بين اللخميين والغسانيين

وعلى ذكر الدفاع عن الملك وذكر اللخميين والغسانيين نقول إن من الحروب العربية الكثيرة الوقائع الشديدة الايام ما كان بين هذين الجذمين من اليمن لان ضلع الغساسنة كان مع الروم وضلع اللخميين كان للفرس فسلطت كلتا الدولتين تبيعها على الآخر ومن أشهر ما كان بينهما من أيام يوم حليمة وما يوم حليمة بسر ارتفع فيه من العجاج ماغطي عين الشمس حتى ظهرت الكواكب

وكان بين الحارث بن أبي شمر الغساني والمنذر بن ماء السماء اللخمي وحليمة هذه ابنة الحارث ونسب اليوم اليها لانها أخرجت لابطال أبيها مركنا به طيب تطيبوا منه والمركن الاجانة

بين الاوس والخزرج

وقل أن توجد حرب داخل الجزيرة لليمن غير ما تقدم الا ما كان بين الاوس والخزرج وهو قليل وأشهر أيامه يوم بغاث وهى مزرعة فى ديار بنى قريظة من اليهود وكانت لهم رهائن عند الخزرج فغدر بها عمرو بن النعمان البياضى رئيسهم فاعانوا عليه حضير الكتائب رئيس الاوس وفيه انهزمت الخزرج ولكن أصيب حضير بجراح مات متأثرا بها وفى ذلك يقول خفاف بن ندبة وكان له صديقا يرثيه

أتاني حديث فكذبته وقيل خليلك فى المرمس
فياعين بكى حضير الندى حضير الكتائب والمجلس

حروب قيس

١ — بين عبس وذبيان

أهمها داحس والغبراء بين عبس وذبيان وكان سببها أن قيس بن زهير العبسى وحمل بن بدر الفزاري «وفزارة من ذبيان» تراهنا على مائة بعير يأخذها من يكون له السبق وكان داحس فحلا لزهير والغبراء حجرا لحمل وكان فى طرف الغاية شعاب كثيرة فأكمن فيها حمل فتيانا وأمرهم أن يردوا وجه داحس اذا جاء سابقا فلما برز داحس قال قيس « جرى المذكيات غلاء »

فذهبت مثلا ولكن لما شارف الغاية وثب الفتية فى وجهه فردوه عنها فسبقت الغبراء وامتنع قيس أن يدفع الرهان لما كان من عمل الفتية وكاد الناس يسكنون لولا أن حذيفة أخا حمل بعث ابنه مالكا الى قيس يشدد فى طلب الرهان فقتله قيس فاجتمع الناس واحتملوا ديته مائة عشراء ولكن حدث أن علم حذيفة بنزول مالك بن قيس بعيدا عن قومه فعدا عليه فقتله فقالت عبس مالك بمالك وردوا علينا مالنا فأبي حذيفة فقال الربيع بن زياد العبسى وكان الذى احتمل الدية عن قيس ولم يكن فى العرب مثله ومثل إخوته وكان يقال لهم الكملة لبئسما فعلتم بقومكم قبلتما الدية ورضيتم بها ثم غدرتم ردوا الدية فلم يسمعوا فنهض بعبس وحلفائها الى فزارة وذبيان ورئيسهما حذيفة وبدأت حرب داحس التى مكثت طويلا حتى كاد ينقرض لها الطرفان وأيامها دامية كثيرة منها المريقب لعبس على فزارة وفيه قتل عنترة الفوارس ضمضما المري أبا حصين وهرم اللذين توعدا عنترة فقال فيهم من معلقته

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر   للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتمي عرضي ولم أشتمهما   والناذرين اذا لم آلقهما دمى
إن يفعلا فلقد تركت أباهما   جزر السباع وكل نسر قشعم

ومنها الهباءة لعبس على ذبيان وفيه قتل حمل بن بدر وأخوه حذيفة ومثل بهما فعظم على غطفان قتلهما وكذا سائر قتلى الهباءة وتجمعت على عبس فعرفت عبس أن ليس لها مقام بارض غطفان فخرجوا الى اليمامة فنزلوا ببنى حنيفة ثم غادروهم الى بنى سعد فغدروا بهم ولم تزل الارض بعبس نابية وذبيان ومن تحمس لنصرتهم من غطفان ينالون منهم حتي أصلح بينهما هرم بن سنان والحارث بن عوف المرى وتحملا الديات والى ذلك يشير زهير وكان منقطعا

الى مدح هرم فى معلقته حيث يقول

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين فى عليا معد هديتما ومن يستبح كنزا من المجد يعظم

الى آخر ما أفاض فى هذا الموضع . وفى قتلى الهباءة كثير من المراثى والاشعار لما أصابت من سادة وماوقع فيها من تشف وتمثيل

٢ — بين هوازن وغطفان

ومن حروب قيس أيضا . ما كان بين هوازن وغطفان وذلك أن هوازن كانت تؤدى إتاوة الى زهير بن جذيمة العبسى فأتته عجوز من كلاب بسمن فى نحى واعتذرت اليه وشكت سنين تتابعت فذاقه فلم يرض طعمه فدعس المرأة بقوس فى يده فاستلقت على قفاها منكشفة فتألى خالد بن جعفر الكلابي ليجعلن ذراعه فى عنقه حتى يقتل أحدهما ثم استقل زهير عن قومه بابنيه ورقاء والحارث فخرج خالد ومعه معاوية الاخيل جدليلى الاخيلية وأحس زهير فركب فرسه القعساء ولكن معاوية وخالدا أدركاه فطعن معاوية القعساء فقلبت زهيرا وخر خالد فوقه فرفع المغفر عن رأسه وضربه معاوية على مفرقه ضربة بلغت الدماغ وانصرفا دون أن يغنى فيهما ضرب ابنى زهير لكمال عدتهما وفى ذلك يقول خالد

بل كيف تكفرني هوازن بعدما أعتقتهم فتـوالدوا أحرارا
وقتلت ربهم زهيرا بعد ما جدع الانوف وأكثر الاوتارا
وجعلت مهر بناتهم ودياتهم عقل الملوك هجائنا وبكارا

ثم حدث أن خالد بن جعفر هذا انتقص الحارث بن ظالم المرى الذبيانى وكان رئيس غطفان بعد زهير بقوله ألا تشكر يدى عندك أن قتلت عنك سيد قومك زهيرا وتركتك سيدهم فقال سأشكر وحقد عليه وقتله منصرفهما من لدن الاسود بن المنذر أخى النعمان وكان الانتقاص بمجلسه ثم هرب فكانت لذلك أيام بين هوازن وغطفان وكان للحارث فى هربه هذا أخبار طويلة وأحاديث شتى ذات ضروب وألوان ثم كانت منيته على يد يزيد بن عمرو الغساني وكان جارا له فقتل فى قومه وهو مستجير فعفا عنه ثم قتل ثانية فلم يتركه دون قصاص وقتله

ومما كان بين هوازن وغطفان غير هذه أيام تلت اغارة عبد الله بن الصمة الجشمى على غطفان يوم اللوى واستياقه سرحهم ثم لحاق غطفان به وهو مقيم ينتقع وقتلها إياه فى وقعة جرح فيها أخوه دريد صاحب القصيدة التى منها البيت

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح الاضحى الغد

والتى يرثى فيها عبدالله ويذكر ما كان من خلفه له فى الاقامة للانتقاع وكان من أشد الايام بعد ذلك يوم الصلعاء وفيه قتل دريد هذا

٣ — بين سليم وغطفان

ومن حروب قيس أيضـا ما كان بين غطفان وسليم على أثر نزاع قام

بعكاظ بين معاوية بن عمرو بن الشريد السلمى وهاشم بن حرملة الغطفاني تهيأ معاوية بعده وغزا هاشما على كره من أخيه صخر فقتل هاشما وتتابعت لذلك أيام لم يقفها الا إصابة صخر بطعنة اعتل بها طويلا ثم مات وليس يجهل أحد ما كان للخنساء أختهما فى هذا الباب من بكاء ورثاء .

بين قيس وغيرها

ولم تك الحروب فى قيس قاصرة على بطونها بل كان بينها وبين غيرها أيام أهمها : —

١ — بين عامر وتميم

فمنها ما كان بين عامر وتميم وسببه أن الحارث بن ظالم المري الذبيانى قاتل خالد بن جعفر الكلابى العامرى على مامر آنفا التجأ الى معبد بن زرارة التميمى شطرا من أيام هربه فأجاره وعلمت بذلك عامر فغزت بنى تميم يوم رحرحان وفيه أسر معبد وأبت عامر فيه الادية الملوك وأبى أخوه لقيط دفعها عملا بوصاة أبيهما زرارة حتى لا تذؤب بهم ذؤبان العرب ومات معبد فى أسره هزالا لحبسه نفسه عن الطعام والشراب. ثم انضمت ذبيان لتميم وغزوا عامرا وقد انضمت اليها عبس لما كان بين عبس وذبيان فى داحس والغبراء فالتقى الجمعان فى شعب جبلة وهو من أعظم أيام العرب ولكن دارت الدائرة على تميم أيضا فقتل لقيط ولحق تميما من ذلك الضعف الكبير

٢ — بين سليم وكنانة

ومنها ما كان بين سليم وكنانة وسببه أن ربيعة بن مكدم من بنى فراس بن

غنم وهو فارس الظعينة قتل ثلاثة فوارس من قيس أرادوا استلابها منه بوادى الاخرم وهو لكنانة وكانوا مغيرين عليه مع دريد بن الصمة فاغارت سليم بعدئذ على كنانة يوم الكديد وفيه قتل ربيعة فتبع ذلك أيام من كنانة على سليم كانت الغلبة فيها دولة بين الطرفين. وفيها وفى يوم الظعينة كثير من رائق الشعر وجليل الرثاء والفخر

٣ — بين هوازن وكنانة

ومنها ماكان بين هوازن وكنانة وأشهرها الفجار الرابع . وسببه أن البراض بن قيس الكنانى وعروة الرحال رجل هوازن كانا عند النعمان وقد جهز عير اللطيمة وهى إبل تحمل تجارة لكسرى الى أسواق العرب من البز والطيب فقال من يجيرها فقال البراض أنا أجيرها على بنى كنانة فقال النعمان ماأريد الا رجلا يجيرها على أهل نجد وتهامة فقال عروة أكلب خليع يجيرها لك أبيت اللعن أنا أجيرها فقال البراض أعلى بنى كنانة ياعروة قال وعلى الناس كلهم فدفعها النعمان الى عروة وحنق عليه البراض فتبعه وهو لايخشى منه شيئا فقتله واستاق اللطيمة الى خيبر فقامت لذلك حرب بين هوازن وكنانة تشيب لهولها الولدان وجعلت تتجدد كل عام فى ميعادها من الاشهر الحرم حتى كانت خمسة أيام فى أربع سنين تداعى الناس بعدها الى السلم بدافع من أنفسهم كأن العرب كانت تستعد لحدث جديد هو حلول الوفاق محل الخلاف قبيل مجيء الاسلام الذى ألف بين قلوبهم فاصبحوا بنعمته اخوانا .

أيام ذى قار بين العرب والفرس

وذو قار ماء قريب من البصرة وكان سببها أن كسرى غدر بالنعمان بن

المنذر وقتله فى المدائن وكان النعمان قد أودع سلاحه هانىء بن قبيصة بن هانىء ابن مسعود الشيبانى وجعل عنده ابنته هندا وهى حرقة فطلب كسرى السلاح وأبى هانىء فكانت الحرب وفيها تضامت العرب وانتصرت نصرا مبينا قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد بعث « اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا ». ولايام ذى قار فى نفس كل عربي مقام يعتز به ولذلك أكثرت العرب جميعا من التفاخر بها والتباهى بذكرها وفيها كانت خطبة هانىء المذكور يحرض قومه بكرا على القتال ومنها

يامعشر بكر هالك معذور خير من ناج فرور ان الحذر لاينجى من القدر وان الصبر من أسباب الظفر المنية ولا الدنية · استقبال الموت خير من استدباره الطعن فى ثغر النحور أكرم منه فى الاعجاز والظهور يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد

رابعا ـ اثر تلك الايام فى الادب

تقدمنا آنفا بطائفة من أيام العرب ذكرنا بواعثها ووضحنا أسبابها لتكون تمهيدا لما نعالجه الآن من أثر تلك الايام فى الادب . واذ كانت تلك البواعث وهذه الاسباب متصلة بعيشهم وان شئت فقل هى نفس عيشهم وكان الشعر ديوانهم الذى اليه يحتكمون وبه يفتخرون فقد فاض عليه من الايام مالولاه لغاض معينه وصوح نبته فلم نره كما نراه الآن تلك الروضة المعطار ذات الغصون الناضرة والاطيار الشادية

حببت الحرب الى نفوس العرب وهى طبيعة فيها صفة الشجاعة والنجدة والبأس والقوة بقدر ما بغضت اليهم الخور والضعف والجبن والهلع فكانوا فى حضهم عليها واصطلائهم نارها وانتشائهم بلذه الظفر فيها يقولون الشعر شعر

الحماسة والفخر فيصدر منهم جزل الالفاظ شريف المعاني نبيل المقاصد يحرك من القلوب الضعيفة ويهون الموت على الاعزة الاحياء ثم ينثنون الى بكاء قتلاهم وتعداد بلائهم تخليدا لمآثرهم وذكراهم فاذا هذا شعر الوجدان الباكى والعاطفة الاليمة ممزوجة بما يخفف على الحى رزء المفقود ويجعله يأنف أن يموت حتف أنفه ويعد من النقيصة والعار ألا تكون منيته بطعنات الرماح وضربات السيوف وأى أمر غير هذا جعل أبا تمام الطائى يسمى مااختاره من شعرهم ديوان الحماسة ويجعل اكثر من نصفه خالصا لها ولما كان حتما مقضيا بعدها من الموت فالتأبين فالرثاء ·

تأمل عيون الشعر الجاهلى فحيث ترى العين قذافة لاينقطع ماؤها لاتنى ترمى بكل مقطعة منه متماسكة الالفاظ متعاشقة المعانى تجدها من هذين البابين وهل لغيرها ومنشؤها ذكر الفجيعة فى الميت واستخلاص الحياة للحى من الاتصال بقرارة النفوس وتحريك ماكمن فيها مثل مالها اللهم لا · ثم يتصل بهذين البابين عن قرب التفاخر باجارة الجار واغاثة الملهوف ونصرة المظلوم وعن بعد التمدح بقرى الاضياف وايواء الطارقين وما لنا نبعد بالقرى والايواء عن مواطن الشجاعة والاقدام وهما راجعان الى الكرم والكرم والشجاعة صنوان ومن أصل واحد ينبتان هو السماحة وما تقتضيه من بذل يقع فى المال فيكون سخاء وكرما ويرتفع الى أقصى غاية الجود تضحية بالنفس فيكون شجاعة واقداما · أفلا نحس اذن أن الشعر العربي اذا تجرد مما أثر فى هذه الناحية الواسعة الاطراف يصبح قاعا صفصفا أو يعدم أقل مايصاب جواهر تاجه ووسائط عقوده فيذهب ماؤه ويضيع بهاؤه

ثم كان من عادة العرب فى الحروب أن يسيروا ليلا ليدهموا بالغارة صبحا فكان من هذا سرى الليل وتعريسه وهول ذلك وخوفه وما اتصل بالسرى

من ذكر الليل نفسه فى دجنته وظلمائه أو فى سمائه بما يسطع فيها من بدر أو يهدى من نجم وهذا منحى آخر من القول بين التأثير فى اللغة والتأثر بالايام

وحتى اذا هدأت الحرب ووضعت أوزارها كانت تفيض على اللغة بالممتع الكثير منها ففى الدعوة الى السلم ونفعها والتنكب عن الحرب وضرها من الخطب والوصايا والحكم والمواعظ وضرب الامثال والشواهد ما استنفد جلها وأخذ كثرها ولو تتبعنا هذه الناحية نحصيها مع ما اتصل بها من صلح ووئام ومغارم ومحامل وديات يفرق فيها بين عربي صريح وآخر مقرف أو هجين لوجدنا الشطر الاكبر فى النثر الجاهلى الى هذا ينسب كما نسب نظيره فى الشعر الى الحماسة والرثاء وما تعلق بهما أو انشعب منهما

وان لنا أن نعتبر عناية العرب بأنسابها وحفظها لمفاخرها وأحسابها الى ذلك الحد الذى لم تعرفه أمة غيرها راجعة الى ولعها بالحرب أيضا حتى اذا مادهمت داهمة كان كل اعرف بقبيله وعشيرته وناصره ومولاه واذا ماطلب ثأر كان معروف المحل ومن هو منه قريب أو بعيد فاذا ماحانت المفاخرة والمنافرة كانت الاصول التى تقع عليها معروفة غير مجهولة لاتطاوع عربيا أن يدعى غير أبوته أو ينتسب الى غير قومه ولذا كان الادعياء نورة فى العرب محل ضعة منهم وتهجين

ثم ما نظن عناية العرب بالخيل تلك العناية البالغة مبالغها الدقيقة فى تناولها الا منسوبة الفضل الى الايام : فما تستتب شجاعة الشجعان فترى منهم البلاء والغناء الا بالخيل عليها يكرون وبها يقتحمون وهل أدل على شدة التلازم بين الشجاعة والخيل من تسمية الرجل على الفرس فارسا فاذا ما كان على بغل اوحمار قيل بغال وحمار وألا يكون أخذ الفرس من الفرْس وهو الهصر والكسر والخيل من الخيلاء وهي الدل والعجب آية أخرى على هذا التلازم

وإذن فما تبع تلك العناية من الاكثار الكثير فى أسماء الخيل ونتاجها وعتقها وصفاتها مما ألفت فيه كتب ولم يسعه كتاب ثم ما كان من تفضيل العربي لجواده على نفسه فى الزاد وجعله وإياه جزءا لا ينفصل منه فى التفاخر بالاستبسال إن هو الا من الحرب نشأ ولأجل القتال كان .

أوليس على أيام العرب وحروبها قامت صناعة السيوف والرماح وسائر عدد الحرب والقتال من مغافر ودروع ولجم وسروج وهذا ضرب آخر أفاض على اللغة الغنى والثراء مفردات وتراكيب وأخيلة وأوصاف . فالسيف فى صقاله ولمعانه وحدته ومضائه والرمح فى اعتداله واستوائه وصلابته وملدانه ثم غيرهما مما تقدم فيما لهما من صفات وأحوال وليس ذلك بالخفى المجهول قد فتح فى اللغة فتحا مبينا ونماها نموا كبيرا .

على أن العرب لم تقف عند الخيل ووصفها والآلات ونعتها بل تلفتت الى ماحولها من حيوان غير أليف فاذا بالاسد قد امتلك عليها لبها وشغل منها قلبها وفؤادها فلم كان الشاغل دون غيره ألا إن ذلك لما جبل عليه العربي من الولع بالقتال وتمجيد الجرأة على المقارعة والنزال فأخذ يعنى بهذا الحيوان يبحث عن أحواله ويتشبه به فى صفاته وأفعاله حتى أحله من نفسه محلا رفيعا وجعله على سائر الوحش سلطانا ومليكا وليس بخاف على أحد ماورد باللغة عن هذا الحيوان من أسماء ونعوت وما قذفت به ألسن الحمية والنجدة عنه من آيات اكبار واجلال . ثم لم يعدم غيره من الحيوان الضارى أن ينال من ذلك بقدر ضراوته كالنمورة والفهود والضباع والذئاب وان كان فيما اختص به الاسد دونها من نبل وكرم وعلو وترفع فوق ماتقدم عنه من قوة وجرأة ماجعله المقصود لدى العرب بالتجلة والاعظام والمتشبه به فى كثير من الصفات والخلال وصرفهم عن غيره الى القول فيه اكثر ما يقولون

وهل أقدمت العرب على تسمية قبائلها وبطونها وأولادها وفتيانها بالكريه من أسماء الحيوان كأسد وفهد ونمر وذئب ثم من غير الحيوان كحجر وصخر وجشم وعبس الا محبة لتلك الاسماء وتفاؤلا لبنيهم أن يكونوا من صفات ذواتها على كمال فيحموا الحوزة ويدافعوا عن العشيرة ويكونوا للحروب أهلا ولمقارعة الابطال كفاء .

وهل اذ انطوى بساط الجاهلية بما كان عليه من شجار وعراك واشتباك وقتال بما قد نشر الاسلام من لواء سلامه ومد من ظل عدله ووئامه انقطع مدد الايام للادب أو وقفت حركتها الدافعة له كلا فقد مكثت أيام الجاهلية الاولى مددا للشعراء غير مقطوع ومفاخر يبتعثون تراثها غير خلق ولا مجدوع نقرأ ذلك مستجيدين ولا آثاره حامدين مستكثرين من لدن صدر الاسلام فى مفاخر الفرزدق وجرير الى حيث قطع العصر العباسى عهد شبابه وصباه على أيام البحترى وأبى تمام .

واذن فهذه كلمة انتظمت أثر الايام فى الادب وما كان لها عليه من فضل ونماء وهى على ما ترى تتناول الشعر والنثر كليهما أمثلة لها وشواهد عليها الا ماقل منهما ومن ثم يسوغ لنا أن نقول غير مبالغين ولا متجنين إن أيام العرب وأدب العرب يكادان يكونان شيئا واحدا لا شيئين ولذا كان الحض على تعرف أيامهم فى القديم بمثابة الوصاة على تعلم آدابهم لا لبس فى ذلك ولا كبير افتراق.

اللغـــــــة

نشأة اللغات و تعددها ــ اللغات السامية و أصل العربيه طرق نمو العربية و خصائصها ــ اختلاف لهجاتها وعوامل تهذيبها

أولا ــ نشأة اللغات و تعددها

احتاج الانسان إلى التفاهم وكان التفاهم بالالفاظ ليسرها وعمومها أفيد أنواع الدلالات فاستعملها فنشأت اللغات ولكنّ فى كيفية هذه النشأة خلافا طويلا دب بين العلماء الأقدمين ولا زال جاريا منهم إلى المحدثين

فعباد بن سليمان الصيمرى يقول إن دلالة الألفاظ على معانيها ذاتية لا توقيف فيها ولا تواضع مستدلا على ذلك بوجود مناسبة بين كثير من الالفاظ ومعانيها وبأنه لولا هذه العلاقة الذاتية لكان اختيار لفظ دون آخر ترجيحا بلا مرجح . وهذا القول مردود فى جملته وتفصيله وإلا لزم أن يفهم الانسان اللغة بل اللغات جميعا دون تعليم وهذا مالا يكون . أما تلك المناسبة فمع ثبوتها لبعض الألفاظ وخصوصا الصوتى منها لا تنهض دليلا لانعدامها فى الأعم الأغلب ويكفى أن يكون مجرد خطور اللفظ دون غيره على الذهن مرجحا له ودافعا إلى اختياره على أن تلك المناسبة لو كانت الأساس لما كان فى لغة من اللغات لفظ يستعمل فى المعنى وضده كما هو مشاهد وكثير.

وأبو الحسن الأشعرى يقول انها توقيفية أتت بوحى من الله سبحانه وتعالى

وتبعه فى ذلك أبو على الفارسى محتجا بقوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » ولكن الآية ليست بالدليل القاطع فى الموضوع إذ يجوز أن يكون المراد بالأسماء أسماء الملائكة أو بالتعليم الاقدار على المواضعة لا التعليم المباشر.

والذي عليه الجمهور وبه قال ابن جنى فى خصائصه هو أن اللغة تواضع واصطلاح وجدت المناسبة أم لم توجد تحقق القصد فى التواضع أم جاء عفوا بالارتجال. وأن الالهام من الله سبحانه وتعالى بمعنى الأقدار ثابت فى الحالين وبيان ذلك أن الحيوان يعبر عن وجدانه بأصوات تختلف باختلاف مطالبه كما نراه ولما كان الانسان لابد أن يفضله فى ذلك لما فيه من قوة الادراك ومطاوعة الصوت فقد استغل مطاوعة الصوت فى تنويع الحروف وقوة الادراك فى ارتجال بعض الالفاظ فكان بهاتين القوتين عندما يريد أن يُفهم أو يستفهم يصيح لغيره بصوت محكى أو مرتجل يتوسم فيه الافصاح عما يريد مضيفا اليه مايزيده ايضاحا من اشارة حسية أو قرينة حالية فاذا مافهم غرضه منه كرره وكرره حتى يستقل بأداء معناه دون حاجة إلى اشارة أو قرينة وعلى هذا النحو منه ومن غيره تكونت النواة الاولى للتفاهم الضرورى ثم أخذت تتسع وتنمو بما يتفقون عليه من غير تعمل ولا قصد حتى كانت لغة الانسان الاول.

وبقياس نشأة هذا الانسان على ماهو مشاهد فى نشأة الطفل وما هو معروف عن لغات الشعوب الهمجية التى لاتزال فى حدود الطفولة يمكن القول بأن نطقه كان أولا بالاصوات الدالة على الانفعالات النفسية أو على محاكاة الطبيعة ثم بالالفاظ المسمي بها بعض المحسوسات حوله وتلا ذلك النطق بالمصادر ثم الافعال وأسبقها المضارع وهكذا انتقل التدرج الى أسماء الاشارة والضمائر والموصولات ثم المشتقات وبعد ذلك كله جاءت الحروف.

تلك هى نشأة اللغة أما كيف تعددت إلى لغات فمنشأ ذلك حتما هجرة طوائف الانسان وابتعاد بعضها عن بعض حيث رأت كل طائفة فى بيئتها مالم يره غيرها فاضطرت إلى وضع كلمات لم يضطر اليها سواها . ثم ان عدم اتفاق الخواطر على فرض تماثل البيئة فى بعض الاحيان جعل الخلاف واقعا لامحالة فى التعبير ولو إلى درجة غير بعيدة . فالى البيئة والخاطر معا يرجع تعدد اللغات ومن هنا كانت تتقارب اللغتان وتتباعدان قربا وبعدا كما كانتا قد تختلفان عن قرب أو تتشابهان على بعد ويغلب أن يكون ذلك قدحدث قبل نوح عليه السلام ولكن حادثة الطوفان عفت على ماسبقها وجعلت الناس لايعرفون تعدداللغات إلا بعدها فنسبوا أصولها إلى أبنائه الثلاثة حام ويافث وسام كمافعلوافى ارجاع أنساب الانسان فارضين أن لغة نوح ومن كان معه فى السفينة كانت واحدة ولكن بنيه لما انتشروا فى الارض بعد ذلك اختلفت لغتهم لما تقدم فى أسباب نشأة اللغات ونسل من كل منهم شعوب وقبائل ذات لغات متعددة ولكنها ترجع فى اصلها إلى أبيهم وإذن فأصول اللغات ثلاثة

١ — اللغة الحامية نسبة إلى حام ومنها معظم لغات أفريقية كالحبشية والمصرية القديمة

٢ — اليافثية نسبة إلى يافث وتعرف بالآرية نسبة إلى آر بن يافث وهى لغة أوربة وكثير من شعوب آسية فى غير الغرب

٣ — السامية نسبة إلى سام وهى لغة غرب آسيا مهد النبوة والرسالة وبها نزلت الكتب المقدسة فأثرت بهذا وبتوسط موطنها فى كثير من فروع اللغتين السابقتين حتى إن بعضها قد عد منها كما سيأتى فى الكنعانية بعد .

ولما كانت العربية « وهى لغتنا وموضوع بحثنا » أحد فروعها ناسب أن نذكر كلمة عنهامع أصل العربية من باب التوطئة والتمهيد

ثانياً — اللغات السامية وأصل العربية

لقد وجد تشابه كبير فى لغات الامم التى سكنت فى القديم غرب آسية من العراق والشام وجزيرة العرب فانها فوق اشتمالها على حروف تكاد تكون خاصة بها كالحاء والصاد والطاء والعين وغيرها قد جاءت كثيرة الاشتراك أو شديدة التشابه فى الالفاظ والمعانى وفى كثير من الخواص كمميزات التأنيث وكيفية اتصال الضمائر بجميع أنواع الكلمات . ولما كانت تلك الامم فى غالبيتها من أبناء سام وكانت هذه اللغات قاصرة عليهم دون غيرهم الا من خالطوهم كالكنعانيين أبناء كنعان بن حام سكان لبنان ثم لم تعرف خارج تلك الجهات الا منقولة معهم فقد سميت هذه اللغات بالسامية وقسمت فى أصولها إلى أرومتين عظيمتين .

الأولى : وهى أقلها شأنا الكنعانية وكان أولى بها أن تكون من الحامية كما تقدم لولا أنها جاءت شديدة التشابه بالفروع السامية لطول ما أقام أهلها مع الساميين وأشهر فروعها (١) الفينيقية لغة أهل لبنان قديما وقد بادت (٢) العبرية وقد دخلها كثير من فروع الارمية الآتية فصار يقال العبرية القديمة والعبرية الحديثة وقد بادت القديمة وبقيت الحديثه

الثانية وهى أعظمها الارمية الاولى نسبة الى إرم بن سام وأشهر فروعها (١) الآشورية لغة أهل نينوى وقد بادت (٢) البابلية لغة أهل بابل وقد تغيرت إلى الكلدانية ومن الكلدانية تفرعت السريانية والارمية الثانية ومكثتا إلى مجيء الاسلام ثم بادت الارمية قطعا والسريانية إلا على ألسنة القليل (٣) العربية القديمة وهى لغة العرب البائدة ذات الاتصال القريب بأرم وقد عاصرت قدامى أخواتها وقبيل أن يبيد أهلها انتقلت إلى اليمن وعرفت بها على

أيام يعرب بن قحطان ولكنها تأثرت باليمنية القديمة وتأثرت اليمنية بها فنشأت العربية الوسطى أو القحطانية التى تمثلت بعد فى السبئية والحميرية وبقيت حتى غلبت عليها العربية الحديثة وهى العدنانية أو المضرية وان كانت تأثرت بالسبئية والحميرية جنوبا وبالعبرية والسريانية شمالا ثم استمرت فى طريق النضوج والتهذيب إلى أن قاربت فيه الذروة قبيل الاسلام فنزل بها القرآن الكريم فأتمه عليها ونشرها على لسان من آمن به فى مشارق الارض ومغاربها.

من ذلك يتبين أن اللغة العربية أصل من أصول الارمية القديمة التى هى منشأ اللغات السامية جميعا ماعدا الكنعانية أو بغير استثناء لما سبق من أن الكنعانية ليست أصلا فيها بل كثيرة الشبه بها ثم مع فضل اللغات السامية على غيرها كما يقول علماء اللغات بكثرة الكلمات وتنوع الاساليب واطراد القياس ووضوح مخارج الحروف وعذوبة المنطق قد فاقت العربية أخواتها جميعا فى ذلك وفى غيره حتى رأى كثير من العلماء قديمين وحديثين شرقيين وغربيين أنها أصل اللغات السامية جميعا بما عقدوه من موازنات بينها وبين السريانية والعبرية وهما أغنى الساميات بعدها إذ اتضح من هذه الموازنات أن العربية أصل لهما بدليل أن الكلمات المشتملة على حرف الضاد وهو خاص بالعربية دونهما تنقل اليهما بجعل الضاد صادا فى العبرية وعينا فى السريانية باطراد ولو كانت العربية ناقلة عنهما لما كان ثمت داع لجعل هذين الحرفين ضادا لوجودهما فيها وبدليل فقدان كثير من أصول الكلم فيهما مع وجوده فى العربية هذا الى ماهو ثابت للعربية من مميزات أوجدها التقدم الفطرى فى بقائها بجزيرتها قرونا طويلة بعيدة عن الاختلاط وآمنة شر المغيرين حتى اكتسبت بذلك مناعة جعلتها أقوى على مدافعة الغير وأبقى على مطاولة الزمن.

ثالثا ـــ طرق نمو العربية وخصائصها

نشأت اللغة العربية على النظام الذى أسلفنـاه فى نشأة اللغات فتكونت النواة الاولى من ألفاظها بعاملى المحاكاة والارتجال ولا بأس من ذكر شىء عنهما الآن حيث يساق الكلام خالصا لطرق نموها وخصائصها

١ ـــ المحاكاة

فألفاظ المحاكاة أنواع : منها ماحوكى به أصوات الحيوان كعواء الكلب ومواء الهر وخوار العجل مما أصله الحرف الاول محركا بحركة . وكرغاء الابل وأصله الحرفان الاولان وكنبيب التيس وأصله الباء مكررة وكصرير الجندب وأصله الحرفان الاولان مكررين

ومنها ماحوكى به أصوات الانسان الفطرية كالشهيق والزفير والشخير والزحير مما أصله الحرف الثانى وكالتأوه وأصله الهمزة والهاء والتأفف وأصله الفاء مكرره والقهقهة وأصلها القاف والهاء مكررتين

ومنها ماحاكى أصوات الطبيعة وتفاعلها كخرير الماء وحفيف الاشجار وهبوب الريح وكالدق والصك والهد والقط والمص والرش ونحو ذلك مما بين حروفه وصوته تشابه

وقد تلاحظ المحاكاة فى وضع أسماء لبعض الذوات من صوتها كالانف والفم وأصلهما الفاء وكالحلق والحلقوم والحنجرة وأصلها الحاء

ومن هذه الاسماء الصوتية نشأت أفعال إما بالمد كخار العجل أو بالتكرير كخر الماء ونحوها مما جعل التولد والازدياد عن طريق الصوت فعالا مستمرا .

ب — الارتجال

والألفاظ المرتجلة هى أكثر ألفاظ اللغة فقد خص الله الانسان بالنطق والفكر فاقتدر بهما على وضع ألفاظ كان ينطق بها كلما دعاه داعى التفهم أو التفهيم ومن العسف أن ننكر عليه الارتجال كما فعل بعض المكابرين ونحن نرى الاطفال ولما يبلغ فيهم النطق والفكر مبلغهما فى الكبار كثيرا مايرتجلون كلمات مركبة من بعض حروف يدلون بها على مرادهم ويستعينون فى تفهيمها ببعض الاشارات وقد لايستعينون ومع ذلك تفهم عنهم بالتكرير فمن الطبيعى والمعقول أن يكون الكبار أقدر منهم على الارتجال ولاسيما إذا ساعدهم عليه استخدام عوامل النمو على ماسيأتى بيانه :

عوامل النمو

هى الابدال والقلب والنحت والاشتقاق والتجوز

الابدال

هو جعل حرف مكان آخر يقرب منه فى اللفظ كأن يكونا من مخرج واحد أو مخرجين متقاربين وقد تناول كل الحروف تقريبا ولكن أشهر أنواعه ما يأتى : —

١ — تبادل الهمزة والهاء مثل أيهات فى هيهات وهيا فى أيا من قول الراجز : —

فانصرفت وهى حصان مغضبه ورفعت من صوتها هيا أبه
كل فتاة بأبيها معجبه

٢ — تبادل الهمزة والياء مثل ألملم فى يلملم ويلمعى فى ألمعى

٣ — تبادل الهمزة والواو عند الحجازيين كوكد فى أكد وإشاح فى وشاح

٤ — تبادل الهمزة والعين عند قيس مثل

أعن توسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم

والأصل أأن ومثل

أريني جوادا مات هزلا لأنني أرى ماترين أو بخيلا مخلدا

والاصل لعلني وابدال الهمزة عينا هو عنعنة قيس

٥ — تبادل التاء والطاء كسلتان فى سلطان من قول الشاعر

فتى زاده السلتان فى المدح رغبة إذا غير السلتان كل خليل

وطرياق فى ترياق

٦ — تبادل التاء والدال مثل سبنتى فى سبندى ومد فى مت بمعنى اتصل

٧ — تبادل الحاء والعين عند هذيل مثل ضبع فى ضبح وبحثر فى بعثر ويسمى الفحفحة

٨ — تبادل الحاء والهاء مثل تفيحق فى تفيهق وكده فى كدح

٩ — تبادل الضاد والظاء كقول أعرابى لسيدنا عمر «أيظحى بضبي» يريد أيضحى بظبي

١٠ — تبادل النون واللام مثل أصيلان فى أصيلال وهتل فى هتن

١١ — تبادل النون والميم مثل غين فى غيم وامتقع فى انتقع

١٢ — تبادل الميم والباء عند مازن كبكة فى مكة وامنى فى ابنى

١٣ — ابدال التاء كافا مثل « يابن الزبير طالما عصيكا » يريد عصيت

١٤ — ابدال الضاد لاما مثل

لما رأى أن لادعة ولا شبع مال إلى أرطاة حقف فالطجع

يريد فاضطجع

١٥ — ابدال القاف كافا عند حمير مثل يارفيك فى يارفيق

١٦ — ابدال لام التعريف عندهم ميما مثل امسفر فى السفر ويسمى الطمطمانية

١٧ ـ ابدال السين تاء عندهم مثل النات فى الناس ويسمى الوتم

١٨ ـ ابدال الكاف شينا عندهم مثل منش فى منك ويسمى الشنشنه

١٩ ـ ابدال العين الساكنة قبل الطاء نونا عند أسد مثل أنط فى أعط ويسمى الاستنطاء

٢٠ ـ ابدال الياء المشددة جيما فى الوقف عند قضاعة ويسمى العجعجة مثل

خالى عويف وأبو علج المطعمان اللحم بالعشج

يريد «على والعشى» وقد يحدث هذا الابدال من غير تشديد وفى غير الوقف

٢١ ـ ابدال كاف المؤنث شينا فى الوقف عند تميم وتسمى الكشكشة مثل قرى فى بيتش أى فى بيتك وقد يكون هذا الابدال فى غير الوقف مثل بش تقتدى النساء أى بك كما قد تضاف الشين الى الكاف من غير إبدال مثل قرى فى بيتكش

٢٢ ـ ابدال كاف المذكر سينا فى الوقف عند بكر وتسمى الكسكسة مثل احمد ربس أى ربك وقد يكون هذا الابدال فى غير الوقف مثل ربس احمد أى ربك كما قد تضاف السين الى الكاف من غير ابدال مثل احمد ربكس

وباب الابدال واسع المدى كثير المثل ولذا كان من أكبر العوامل فى اختلاف اللهجات

القلب

هو تقديم حرف أو تأخيره فى الكلمة بحيث تنشأ كلمة أخرى متحدة المعنى مع الاولى أو مختلفته يسيرا كبعض وبضع وجذب وجبذ ويغلب أن يكون سببه خطأ أتى من سبق اللسان أو محاكاة لمسموع مع سوء الاستماع ثم تكرر استعماله فثبت

النحت

صوغ كلمة من بعض حروف كلمتين أو أكثر ايجازا فى النطق كبسمل وحمدل وسبحل وحوقل وطلبق ودمعز وعبشمى وعبقسى وبعضهم يغالى فيقول إنه قد يأتي فى الكلمة فتصفو على حرف واحد وأن من ذلك حروف المضارعة فالهمزة من أنا والنون من نحن والتاء من أنت والياء من هى .

الاشتقاق

أخذ كلمة من أخرى مع تقارب فى المعنى واختلاف فى اللفظ وهو باب واسع النطاق كثير التقاسيم وقد تكفل به علم الصرف

التجوز

استعمال اللفظ أو التركيب فى غير ما وضع له لعلاقة هى المشابهة أو غيرها وبقرينة مانعة أو غير مانعة وهو باب حافل وضع من أجله علم البيان

الترادف

وهذا عامل سادس هو الترادف ويكون بأن يوضع للمعنى الواحد أكثر من لفظ وهو شائع فى العربية وقد تصل كثرته الى مئات الالفاظ ومنشؤه اختلاف الخواطر فى وضع الاسماء أو فى التعبير عن المعاني على أن بعض علماء اللغة يقول انه لابد أن كانت هناك فروق دقيقة بين المترادفات تنوسيت على تطاول الزمن ولكن فى هذا القول بعض مغالاة ولعل القصد فى التعليل أن يقال إن الترادف لم يظهر الا حين اشتد الاختلاط وعرف كل قبيل ما كان يستعمله الآخرون فتبادل واياهم هذا الاستعمال

الخصائص

تلك هى طرق نمو اللغة وزيادتها أما خصائصها فمع صعوبة إثبات شىء من الخصائص للغة ما على اطلاق اللفظ يمكن أن نسند الى العربية من الميزات ما اذا لم يكن

خاصة من خواصها لا يعدم أن يكون فيها أفضل منه فى غيرها وأهمه

١ — الاعراب ولا يكاد يشارك العربية فيه من اللغات الا القليل كالحبشية على ضعف وقلة تصريف بينما هو فى العربية كثير التنويع والتفريع وبه يكون التمييز بين المعانى والوقوف على مرامى المتكلمين فوجوده فى العربية دليل على قدم أهلها فى البيان وألمعيتهم فى تفهم الاغراض فان اختلاف حركة فيه قد يقلب المعنى ويغير من نوع الكلمة

روي أن رجلا من الخوارج قال وخليفتهم إذ ذاك شبيب

فمنا يزيد والبطين وقعنب ومنا أميرُ المؤمنين شبيب

بضم الراء فامر عبد الملك بطلبه ولما وقف بين يديه قال له أنت القائل وروي البيت كما ذكر فقال لم أقل هكذا انما قلت « ومنا أميرَ المؤمنين شبيب » وفتح الراء فضحك عبد الملك وخلى سبيله لتخلصه بفطنته

وروى أيضا أن الوليد بن عبد الملك وكان لحانة قال لأحد أشراف قريش من ختنك بفتح النون وهو يريد الضم فقال فلان اليهودى فقال له ما تقول ويحك قال لعلك تسأل عن ختنى يا أمير المؤمنين هو فلان

٢ — عدم الابتداء بالساكن وعدم جواز التقاء الساكنين الا بضوابط تجعله على قلته غير ثقيل وهذا خاص بالعربية وقد يجتمع فى غيرها من اللغات الاخرى أكثر من ساكنين

٣ — الدقة فى استعمال الالفاظ وتتضح فى العربية فى أمرين أحدهما تفصيل الالفاظ بقدر تفصيل المعانى حتى ليكاد يوجد لكل جزئية من المعنى الواحد كلمة خاصة بها وهذا كثير فصلته مخصصات اللغة فى أجزاء الإنسان والحيوان والطير والنبات والجماد والزمان وغيرها مما هو مواطن التسمية ثم فى تفرع الافعال للشيء الواحد فالقتل مثلا للمعني الكلي وتحته من الالفاظ ما يبين

كافة أنواعه . والثانى عدم العدول عن اللفظ المناسب للمعنى ماوجدت تلك المناسبة فان ملاحظة المناسبة ان هى الا من تلك الدقة وهذا مستفيض فى اللغة قد تناول الالفاظ الموضوعة بالمحاكاة كلها وأتى على كثير من المرتجلة عن طرق النمو السابقة وما نظن لكثير من اللغات مثل هذا

٤ - الدقة فى استعمال التراكيب ومن أجل هذه الدقة الكلامية وعليها قامت علوم البلاغة الثلاثة بفصولها الضافية وأبحاثها الوافية التى يبعد أن تضارع بمثلها فى غير العربية

٥ - الايجاز وليست هناك أمة تبارى العرب فيه فقد بلغ من إيجازها أن كان الكلام على غنائه فى المعنى يقع فى الجملة والجملتين. وما الامثال والحكم وجوامع الكلم الا آيات شاهدة على هذا ثم لعل فى اكثار العرب من استعمال الايماء والاشارة والتعريض والكناية واللحن الصارف الى غير المتبادر أحيانا ما يرينا مبلغ مقدرتها على الايجاز ومهارتها فيه

٦ - خضوع عوامل النمو السابقة فى جملتها لكثير من الاقيسة والضوابط مما لا يوجد بعضه فى غيرها ألبته أو يوجد بقدر ضيق يجعل الشاذ أكثر من المقيس.

٧ - هذا وبالعربية خاصة قيل إنها لا تعتبر من آيات الكمال والمدح بل من بقايا النقص والعيب وهى الاشتراك ويكون بأن يطلق اللفظ الواحد على أكثر من معنى وبخاصة اذا كان فى بعض معانيه التضاد مما يؤدى الى التعمية والابهام إذ هذا يتنافى مع الغرض المفروض فى اللغة من أنها وسيلة الى الايضاح والبيان ويغلب أن تكون الألفاظ المشتركة من بقايا اللغة التى لم يأت عليها الزمن بعوامل الاختصاص ولكن مما يهون الامر فيها بالعربية وجود كثير من الكلمات المختصة ازاء اللفظ المشترك فان فى ذلك غناء للقائلين وفرارا مما فيه تلبيس على السامعين هذا الى ماقد يفيض به المقام اذا استعمل اللفظ المشترك من قرائن تتطلب المعنى المراد دون لبس ولا ابهام على ان الابهام قد يقصد فى بعض الاحيان.

رابعا — اختلاف لهجاتها وعوامل تهذيبها

عرف مما سبق بيانه فى اللغات السامية وأصل العربية أن العربية اجتازت ثلاثة أطوار طور أول هو نشوءها على لسان العرب البائدة الذين هم أقرب الشعوب العربية الى سام لانهم الى ابنه إرم ينسبون وطور ثان هو ما كان من اختلاط هذا الشعب الاول باليمنيين القدماء اختلاطا جعل لغة كل فريق تؤثر فى لغة الفريق الآخر ولكن يظهر أن الغلبة كانت للغة العرب البائدة على اليمنية القديمة فصارت أوضح منها فى العربية الثانية لما هو متفق عليه من أن اليمنيين تعربوا على عهد يعرب بن قحطان ومن ثم عرفوا بالعرب المتعربة ثم كان ما كان من انقراض العرب البائدة وبقاء العربية ممثلة على لسان القحطانيين وحدهم أما الطور الثالث فهو ما كان من نشوء شعب عربي جديد حيث نزل ابراهيم وادى مكة على مقربة من جرهم الثانية وهى قحطانية فرفع قواعد البيت ثم عاد تاركا هناك ابنه اسماعيل الذي أصهر فى تلك القبيلة فكان له بنون نشئوا يتكلمون لغة جديدة تأثروا فيها بلغة أبيهم وبلغة هؤلاء القحطانيين حتى اذا ما انحدر التناسل الى عدنان ثم ظهور شعب ثان هو الشعب العدناني الذي عرف باسم العرب المستعربة وبذلك كانت هناك اغتان قحطانية فى الجنوب وعدنانية فى الشمال ولكن مهما قلنا فى التفرقة بين اللغتين فلن تبلغ التفرقة جعل كل واحدة منهما تامة الاستقلال عن الاخرى لأن تكوين الاخيرة يأبي هذا الاستقلال كما يأبى إلا أن تكون الاولى أغلب عليها عملا بتغلب الكثير على القليل وكذلك مهما قلنا فى التقارب بينهما فلن يبلغ التقارب درجة الاتحاد وبخاصة اذا علمنا أن معظم الشعوب القحطانية حين نشوء العدنانية كانوا بعيدين فى الجنوب عن الاختلاط بالعدنانية فى الشمال وعلى هذا الاساس سيكون قولنا فى اختلاف

لهجات العربية وعوامل تهذيبها وكان ظاهر العنونة يقتضى أن نقدم القول فى اختلاف اللهجات عليه فى عوامل التهذيب لولا أن ما سنسوقه بعدمن اختلاف فى اللهجات هو بقايا مامكث منها على الرغم من تلك العوامل حتى جاء الاسلام وفى هذا ما يدعوا الى عكس الترتيب

عوامل التهذيب

يقصد بالتهذيب الذى حدث فى اللغة الى أمرين أحدهما السير بها فى طريق التحسين والترقى بمجهود كل قبيل على حدة وبقطع النظر عن أن يتقرب فى ذلك الى لهجات غيره من القبائل الاخرى والثانى العمل على تقريب تلك اللهجات بعضها من بعض تقريبا ينتهى كما انتهى بما هو أشبه بالتوحيد ولكل من هذين الامرين عوامل هى المجتمعات الخاصة للاول والعامة للثانى على أنه من الطبيعى أن تكون المجتمعات العامة مع اختصاصها بالتهذيب من ناحية التوحيد عاملة عليه أيضا من الناحية الاخرى فما هى اذن تلك المجتمعات

ا ـ المجتمعات الخاصة

كان للعرب مجتمعات خاصة كثيرة دفعتهم اليها أحوالهم وشهدت بها الفاظهم وكلها كان يستدعى منهم أن يقولوا ويتكلموا محاولين فى ذلك تجويد قولهم وتحسين كلامهم ما أمدتهم القريحة وطاوعهم البيان وفى هذا من العود على اللغة بالتقدم والترقى ما نريد أن نقول

فمن المجتمعات ما كان للمذاكرة والمشاورة فى تدارك حرب أو اغارة وكان يقع غالبا فى قبة ينصبها من تكفل بأمرهم فيجتمع فيها أهل الحل والعقد منهم ثم تدور أقداح القول ويجرى النقاش فيه تأييدا أو نقضا حتى يصلوا الى رأى يستقرون عليه ويعزمون العمل به ومن هنا نشأ ما يذكرونه عن الرأى البيت والاقبال عليه والرأى الفطير والانصراف عنه

ومنها ما كان للحكومة والفصل فى الدعاوى والمنازعات فيستعد كل فريق للادلاء برأيه والدفاع عن وجهة نظره أمام حكم يرضونه ويذعنون لحكمه وقد كان هؤلاء الحكام يختارون ممن عرفوا بحصافة الرأى وحضور البديهة وقوة البيان حتى يكونوا قديرين على مناقشة الخصوم واستجلاء الحقيقة من تلك المعمعة الكلامية التى يريد أن يخرج منها كل طرف فى الخصومة فائزا على خصمه منصورا

ومنها ما كان للاتعاظ والاعتبار فما خلا قبيل من ذى بصيرة نافذة ونفس طاهرة يجتمعون اليه بعض أيامهم لاستماع ما فيه ترغيب أو ترهيب كما توحي عقائدهم وتنطق فطرهم ومن هذا النوع ما كان من اجتماع قريش حول كعب ابن لؤى كل يوم عروبة يعظهم ويذكرهم ويقال إنه لذلك سمى يوم الجمعة وإنه لذلك أيضا ولسبقه يومي السبت لليهود والأحد للنصارى اختاره الاسلام بعد لجعل صلاة الجمعة فيه

ومنها ما كان للتحالف والتعاقد على الدخول فى أمر أو الكف عن أمر مما يتطلب من ذوي المكانة والزعامة قبل الدعوة اليه قولا وبيانا ومن السامعين مدافعة وحوارا حتى تستقر الاشياء فى أنصبتها وتطمئن النفوس الى الايمان بها، ومن ذلك حلف المطيبين حين أراد بنو عبد مناف أن يأخذوا من بنى عمهم عبد الدار ما أعطاهم إياه أبوهما قصى بن كلاب من أمور البيت فأبوا عليهم وكاد يقع الشر لولا هذا الحلف الذى قسم الامور بينهما وانما سمى بذلك لانهم غمسوا أيديهم حين عقدوه فى طيب مسحوا بها الكعبة توكيدا له وتوثيقا. وكثيرا ما كان يقع التحالف اذا تسافه أفراد القبيلة تسافها يقتحم الحد ويتهجم على العرف فيهب أشرافها يتعاقدون على التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر كما

فعلت قريش فى حلف الفضول على يدى العباس بن عبد المطلب وسفيان بن حرب ورسول الله يومئذ ابن خمس عشرة سنة وهو الحلف الذى قال فيه صلى الله عليه وسلم «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعى اليه فى الاسلام لاجبت»

ومنها ما كان اذا خلوا من تلك المشاغل لمحض الانس وترويح النفس بذكر ما سلف من الحروب والوقائع وقص ما مضى من السير والاخبار وتناشد ما حلا من الرجز والقريض الى غير ذلك مما تنشرح له الصدور وتنتعش به الافئدة وكان هذا النوع من المجتمعات لا يقع غالبا الا ليلا ولذا سمى حديثه بالمسامرة والسمر وهما فى اللغة حديث الليل وكانت عادتهم فيه أن يتحلقوا وفى وسطهم من ينتهى اليه أمرهم وأحيانا كان يتحمس المتكلم اذا أراد ذكر قصص غريب فينهض لالقائه واقفا كما يفعل الخطيب

هذه هى المجتمعات الخاصة وقد قطعت فى تهذيب اللغة بالمعنى الاول شوطا بعيدا ولها أسست الاندية ومن أقدمها دار الندوة التى أسسها قصى بن كلاب فكانت تجتمع اليه فيها قريش للامور السالفة ليلا ونهارا ولهذا سمى مجمعا على أن الاجتماع بها لم يقتصر على تلك الامور بل تعداها الى غيرها كالاملاك والاعذار فكان يقع من الكلام ما يلائم الموضوع ومن الخطب ما يناسب المقام

ب — المجتمعات العامة

أما المجتمعات العامة فنعنى بها ما أدى الاجتماع فيها الى الاختلاط بين قبيلتين أو أكثر أيا كان الدافع الى هذا الاختلاط ونقصد منها أكثر ما نقصد العمل على التقارب والتوحيد بين لغات القبائل وبخاصة بين يمن ومضر وإن كانت تؤدى مع هذا الى ما سبق ذكره من الحسن والارتقاء وقبل أن نتكلم على عواملها وهما قريش والاسواق لا بد لنا من القول بأن العامل الاساسى قبل هذين كان اختلاط القحطانية بالعدنانية حيث غادرت كثرتها اليمن منذ القديم

لسيل العرم أو للعيش أو لغيرهما من أى شىء تشاء فملأت من الجزيرة العربية وسطها وشمالها ومابعد من أطرافها وبذلك كان تخالط وكان امتزاج ذهبت به الفوارق اللغوية الجسيمة بحكم الطبيعة وعلى توالى الايام ثم كان ماستذكره عن قريش والاسواق فضعفت كل الضعف وزال ما بقى من فارق أو كاد

قريش

« إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » رفع ابراهيم قواعده وابنه اسماعيل فأقاما أركانه وأتما بنيانه وتقبل الله دعاءهما الذى حكاه سبحانه بقوله عنهما «واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » فكان بيتا محجوجا يقصده العرب من كل مكان قصى ويأتون اليه من كل فج عميق يطوفون به ويقضون مناسكهم فيه ولقد كانت أفئدتهم تهوي اليه استجابة لدعاء نبيه وخليله حيث يقول « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » وما زال هـذا البيت محل وفادة لجميع العرب من لدن اسماعيل حتى جاءت قريش فكانوا جيرته الأدنين يقيمون حوله ويقومون بسدانته توفيراً لراحة زائريه وعملا على ارضاء قاصديه يستمعون جميع لهجات العرب اذا دعوا ولبوا أو تضرعوا وتوسلوا وإذا أرادوا أمراً أو قصدوا شيئا فلا يزالون موسم الحج على طوله وإذا لم يك حج كان اعتمار ينقلون إلى لغتهم ما يستحسنون من ألفاظ وعبارات وينقل الوافدون اليهم عنهم إذا قفلوا أكثر مما ينقلون هم فينشرونه فى أرجاء الجزيرة ونواحيها وهـكذا دواليك بقيت قريش أداة أخذ وإعطاء تعمل بمجهود جبار على التوحيد والتهذيب حتى تهذبت عبارتها وترقى أسلوبها واتسعت

لغتها ، صارت أوفى بتأدية المراد من غيرها وأصبحت لهجة مكة وهى حاضرة العرب وبلدة قريش أوضح اللهجات بيانا وأعذبها أسلوبا وأخفها منطقا وأوسعها فهما شأن اللهجات فى حواضر المدن وقواعد الممالك تجد لها من الحلاوة والطلاوة مالا تجد لغيرها من سائر مدنها وجميع قراها ثم لم تك قريش محل وفادة فحسب بل كانت بحكم عملها التجارى لا تزال تقطع بلاد العرب برحلة الشتاء والصيف الى اليمن جنوبا والشام شمالا فتغزو بهاتين الرحلتين وبغيرهما الى غير هذين الاقليمين ماتصادفه من خلاف غزوا يكسر من حدته ويفل من غربه فاذا هو مستكين ضعيف يتوارى ثم لا يلبث أن يزول

الأسواق

جمع سوق وهى مجتمع الناس أصلا للبيع والشراء وكانت للعرب أسواق عامة يبدءون التنقل اليها من أوائل سنتهم بالشمال ثم لا يزالون يسيرون اليها شرقا فجنوبا حتى ينتهوا من سوق صنعاء بانتهاء رمضان فتعمد جميع القبائل الى الاستعداد خلال شوال للرحلة الى سوق عكاظ فيعمرونها من أول القعدة إلى عشرين منه ثم يغادرونها إلى مجنة قرب مكة بقية القعدة ومن مجنة يذهبون أول الحجة إلى ذى المجاز بجانب عرفة لا بمنى كما قد يقال ومنها يكون المنصرف إلى الموقف الاعظم فى عرفات وبالصدور منه ينفرط عقد الناس

ولما كانت هذه الاسواق الثلاث قريبة المكان من مكة والزمن من موسم الحج كانت أعظم الاسواق جمعا لقبائل العرب المتباعدة مقاما ونسبا وكل مجتمع كهذا لا يخلو والناس يزحم بعضهم بعضا من بادرة غضب أو سابقة قول وما أسرع تجمع الناس والتفافهم حول المختلفين فيرى كل من المتنازعين حوله من الخلطاء والبعداء ما يطلق من لسانه ويثير من انفعاله فيقول ويفخر والجموع مثار القول والفخر ثم ينصرفان وفى نفس كليهما موطن لم يبلغه فيعود هو

أو أحد عشيرته إلى السوق من عامة القبائل وقد أعد قولا يرد به على منازعه ويستكمل به نقصه وهكذا بدأ الاتجار بالكلام فى الاسواق وما زال آخذا فى الازدياد حتى كان خير بضاعة أو هو البضاعة النافقة فى هذه الاسواق وأخصها عكاظ فقد اعتادت القبائل أن تعد للقول بها عدته وللفخار آيته فيستمع المحكون ويقدمون أو يؤخرون وفى هـذا من الباعث على الروية فى القول والتخير للنظم مارفع من صناعة الكلام وجعل التروىء من عادة الكثيرين وقد كانوا من قبل ينطقون دون سبق روية أو تفكير وشتان ما بين البديهة وإن وافقت الصواب وسداد البصيرة وهدى التفكير

وإذ كان الشعراء والخطباء وكل ذى كلام يريد له سعة فهم وكثرة ذيوع ولا بد أن يريد يرون لغة قريش أو فى اللغات بهـذا فقد اتوا اليها جميعا يستوحون فصاحتها وبيانها ويستمدون قوتها وسلطانها حتى غطت على جميع اللهجات فأصبحت العلم الذى بنوره يهتدى والامام الذى بقوله يقتدى عرف العرب لها ذلك واعتقدوه فى المحاكاة والتقليد فأخذوا يتقربون بلغاتهم اليها وكانت الاسواق من أقوى العوامل على هـذا التقريب حتى قارب توحيد اللهجات التام واستعد العرب لفهم القرآن الكريم الذى نزل بلغة قريش ولمعرفة مواطن الاعجاز فيه فلم يبق بعد نزوله إلا القليل من اللهجات

اختلاف اللهجات

ليس أمامنا من قول فى اختلاف اللهجات بعد الذى قدمناه من أن عوامل التهذيب قد تغلغلت فى اللغة فنقتها وهذبتها ووحدتها فى مجموعها وقربتها وجعلت لغة قريش معروفة للجميع يمتلكون زمامها ويفضلون القول بها على غيرها سوى أن نذكر بعض هذه اللهجات لتضم إلى ماقدمناه منها فى الابدال

ا — لليمن

١ ـ تلتلة بهراء . وهى كسر حروف المضارعة إلا همزة إخال فانها عامة الكسر لدى الجميع

٢ ، ٣ ـ وهم كلب ووكها . والاول كسر هاء الغائب دون أن يسبقها كسر ولا ياء ساكنة · والثانى كسر كاف المخاطب بعد الكسرة والياء الساكنة وقبل ميم الجماعة

٤ ، ٥ ـ استعمال ذو وفروعها بدل الذى وفروعها عند طيء · وفتح عين الناقص المكسورة عندهم أيضا

٦ ـ حذف نون اللذين واللتين رفعا عند بلحارث من مذحج

٧ ـ اعراب المثنى بالالف عند بطن من كلب يدعى ربيعة

٨ ـ حذف بعض الحروف دون علة عند أزد الشحر وعمان مثل مشالله فى ما شاالله وتسمى اللخلخانية

ب ـ لمضر

١ ، ٢ ـ ضم هاء الغائب بعد كسر أو ياء ساكنة عند الحجازيين · والزامهم ما النافية عمل ليس

٣ ، ٤ ـ عدم اعمال ماعمل ليس مطلقا عند تميم · وقصر أولاء الاشارية ومد ألى الموصولة عندهم أيضا

٥ ـ اختلاس هاء الغائب أو تسكينها بعد حركة عند بنى كلاب وبنى عقيل

٦ ـ اجراء الذين مجرى جمع المذكر رفعا عند بنى عقيل وهذيل

٧ ـ قلب ألف المقصور ياء إذا أضيف إلى ياء المتكلم مع ادغامها فيها عند هذيل

جـ — لهجات غير مقيدة بيمن أو مضر

١ـ اعراب الاسماء الخمسة بالحركات مقدرة على الالف أو ظاهرة على عينها
٢ـ اعراب المنقوص نصبا كاعرابه رفعا وجرا
٣ـ الحاق الضمائر بالفعل على أنها علامات تثنية وجمع
٤ـ زيادة حروف لين باشباع الحركات فى المد
٥ـ ترقيق المفخم بطريق الامالة من الفتح الى ما بين الفتح والكسر
٦ـ تسكين بعض المتحرك بدون علة كالعين فى معكم
٧ـ الاختلاف فى نوع حركة أحد الساكنين حين التخلص من التقائهما
٨ ـ « « التذكير والتأنيث حيث لا يجب أحدهما
٩ ـ « « الهمز والتسهيل
١٠ ـ « « الفك والادغام
١١ ـ « « صيغ جموع التكسير للكلمة الواحدة

هذا ومن اختلاف اللهجات أيضا اختلاف القبائل فى معاني الالفاظ اختلافا نشأ عنه الترادف والاشتراك والتضاد وقد تقدم وجه الرأى فيه ؟

معارف العرب فى الجاهلية ومعتقداتهم

ينبغى لمن يتعرض لهذا الموضوع بالكلام أن يصدره بأمرين جديرين بالعناية بهما:—

أولا أن المقصود من كلمتى معارف ومعتقدات ليس ما يفهم من كلمتى علوم وأديان بالمعنى الذى يعرفه الناس لان الحياة البدوية الجاهلية تأبى هذا الاطلاق فما كان علم من غير حضارة ولا كان دين بغير دعوة وكلا الامرين لم يك موجودا فى الجزيرة العربية قبل الاسلام الا فى أجزاء قليلة من أطرافها لا يصح تغليبها على المجموع الكثير ولهذا اختيرت الكلمتان السابقتان فى العنونة له دون أختيهما اللاحقتين

وثانيا أن ما عرف عنه لم يك مرجعه الاثر والحفر أو التدوين القديم كما هى الحال فى بعض التواريخ فان العرب كانت بعيدة اذ ذاك عما تستلزمه هذه الاشياء من تقدم فى الصناعة ومعرفة بالكتابة انما كان مأخوذا مما نطقوا به فى أشعارهم وما قصه القرآن من أحوالهم وهو لا يعدو فى المعارف نتيجة التجربة وفى المعتقدات أثر العادات الا ما أخذوه فى النوعين عن غيرهم من الامم ذات الحضارة أو الدين أو الاثنين معا كالروم والفرس واليهود بحكم المخالطة والجوار كما سنقصه بعد بالاجمال.

اولا — المعارف

١ — السماء وكائنات الجو

لعل خير معارفهم فى الجاهلية علمهم بالسماء وكائنات الجو لارتباط ذلك بمعاشهم من حيث توقف حياتهم على المطر وهدايتهم على النجوم وقد استعانوا على كثير من

هذا العلم بالكلدانيين وهم بقايا كهنة بابل عباد الكواكب ذوى المهارة فيه ويعرفون عند العرب بالصابئة والى هذا يرجع السبب فى اشتراك كثير من الفاظه ومصطلحاته بين العربية والكلدانية

وقد عرف العرب الافلاك وهى مدارات السيارات وكثيرا من الكواكب والنجوم وعرفوا السيارات السبعة وهى الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل وكذا البروج الاثنى عشر وهى ما يقع من الكواكب والنجوم فى سمت مدار الشمس وسموها بأسماء الصور التى تشابهها من بعض الحيوان أو النبات أو الادوات وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت كما عرفوا منازل القمر الثمانية والعشرين وهى الكواكب والنجوم التى تقع فى سمت مداره ويقطع كل منزلة منها فى ثلاث عشرة ليلة وقسموها على الفصول الاربعة الشمسية فجعلوا لكل فصل سبع منازل وهى بالترتيب الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع للربيع ، النثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك الاعزل للصيف ، الغفر والزبانى والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة للخريف ، سعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية والفرغ الاول والفرغ الثانى والريشاء للشتاء .

وهم يسمون هذه المنازل بالانواء والنوء عندهم النجم يسقط تحت الافق الغربي مع الفجر ويطلع رقيبه فوق الافق الشرقى من ذلك الوقت

ولما كان الذى يهمهم هو المطر وما يتبعه من رياح وحر أو برد قسموا السنة من حيث المطر سبعة فصول سموها بأسمائه وهى بالترتيب البدرى وأنواؤه ثلاثة تبدأ بالفرغ الاول ويليه الوسمى أربعة أنواء والولى عشرة والغمير

أو المد أربعة والبسرى اثنان وبارح القيظ ثلاثة ثم احراق الهوى وهو اثنان وعلى ترتيبها هذا يبدأ المطر ضعيفا ثم يأخذ فى التزايد حتى يبلغ أشده فى الولى ثم يعود الى التناقص حتى يكون الجفاف .

٢ — البيطرة والطب

ومن خير معارفهم بعد النجوم البيطرة وهى تطبيب الدواب من ابل وخيل لشدة حاجتهم اليهما وبخاصة الخيل فقد بلغوا درجة كبيرة فى تعرف أمراضها وعوارض هذه الامراض وكيفية معالجتها وساعدهم على ذلك واسع علمهم بصفاتها وطباعها وعيوبها مما استفاضت بحوثه وأمد الرواة بالتأليف فيه ويغلب أن يكون علم البدو بكثير من ذلك الى الآن موروثا عنهم .

أما طب الانسان فلم يك عندهم فيه شيء ذو بال الا ما كان من الكى والبتر ولكن فى أواخر الجاهلية ظهر فيهم بعض الاطباء كالحارث بن كلدة الذى تعلم الطب فى فارس وزاوله ببلاد العرب وهو صاحب المحاورة الطبية المشهورة مع كسرى وقد سأله فيها عن كثير من قضايا الطب فجاءت إجابته عنها أشبه برسالة طبية ذات قيمة. هذا على أن جهل العرب بالطب لم يمنعهم أن يعرفوا كثيرا من أسماء العلل وسماتها والامراض وعوارضها كما تدل على ذلك ألفاظهم الموضوعة فى هذا الباب

٣ — التاريخ والانساب

لم يك عندهم شيء ذو نظام من علم التاريخ انما كانت لديهم أخبار مقتضبة متوارثة وقفوا عليها بمجاورتهم للفرس والروم ومخالطتهم لليهود وبما أسس فى أطراف جزيرتهم من ملك وبعث هنا لك من أنبياء وبالرغم من أنهم بكروا فى وضع شهورهم القمرية وفى علمهم بالسنة الشمسية لم يستخدموا التأريخ بالسنين كما فعلت الامم حولهم مكتفين بقولهم للزمن القديم عادى وللاقدم

منه زمن الفِطحل ومستغلين عظام الحوادث للتأريخ وكلما جدت حادثة عفت على سابقتها وهكذا بقوا حتى جاء الاسلام .

وبمقدار اضطرابهم فى التاريخ كانت دقتهم فى الانساب فقد كانوا يلمون بها الماما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وكان أعلى النسب عندهم الشعب ومنه تتشعب القبائل ومن القبيلة تكون العمائر فالبطون فالافخاذ وليس بعد الفخذ إلا الفصيلة . ولقد كان فيهم نسابون تعيا الدفاتر ولا يعيون وتضل الكتب ولا يضلون ساقهم الى ذلك حرصهم على سلامة أنسابهم ونقاء أحسابهم لحاجتهم الى النسب فى المقاتلة والمناصرة والى الحسب فى المفاخرة والمنافرة مع شدة طلبهم للثأر وعدم التوانى فى أخذه ممن هو محله أو هو منه قريب

٤ - القيافة والعيافة

القيافة أصلا الاهتداء بآثار الاقدام على أربابها غير أنهم توسعوا فيها فجعلوا منها الاستدلال بهيئة الانسان وأعضائه على نسبه وتسمى الاولى قيافة الاثر والثانية قيافة البشر وقد كانوا فى الاولى يميزون بين أثر الرجل والمرأة والشيخ والشاب والبصير والاعمى والاحمق والكيس وكذلك كانوا يفعلون فى الحيوان . وكانوا فى الثانية ينظرون عدة أشخاص مجهولى النسب لهم فيلحقون كلا برهطه وعشيرته فاذا كانوا من رهط واحد ألحقوا الابن بأبيه والأخ بأخيه والقريب بقريبه وقد اشتهرت بهذا النوع قريش وبالنوع الاول بنو مدلج وهم بطن من كنانة كما اشتهر من غيرها فى النوعين أفراد كثيرون . وكلاهما ضرب من الفراسة بقوة الحدس وصدق الخيال أوجدته فى المستعدين منهم حاجتهم الى تعرف الآثار وحقيقة الانساب والحاجة كما يقولون تفتق الحيلة بل هى أم الاختراع وان المطلع على ماروى من هذا عنهم أينا له الدهش الكبير . أما العيافة فأصلها الاستدلال باسماء الطيور وسقوطها وارتفاعها على ما يتفاءل

به أو يتشاءم منه ولكنهم توسعوا فيها أيضا حتى تعدت الطير إلى غيره من حيوان ونبات وجماد وتعدت ما تقدم من الاسماء والسقوط والارتفاع إلى الاصوات والحركات وسائر الاحوال والصفات. وهي كالعيافة ضرب من الفراسة بقوة الحدس وصدق الخيال وقد اشتهرت بها قبائل أخصهم بنو لهب وهم بطن من الازد وأفراد آخرون. وكان من عادتهم في عيافة الطير أن ازجروا على السانح ويتبركوا به وهو ما أراك مياسره فأمكن الصائد منه ويكرهوا البارح ويتشاءموا منه وهو ما أراك ميامنه فلم يمكن الصائد منه وهذا من زجر الطير سقوطا وارتفاعا. وكثيرا ما كانوا يزجرون بالاسماء فيجعلون الهدهد هدى وهداية أو يأخذونه من الهد والاتلاف كما يأخذون الحمام من حم اللقاء أى قرب أو من الحمام وهو الموت ويجعلون العقاب عقبى خير أو عقبى شر وكذلك في سائر الطير إلا الغراب فانهم لا يخرجون فيه عن التطير والتشاؤم فيجعلونه من الاغتراب ويسمونه غراب البين كما يسمونه حاتما لانه يحتم عليهم بالفراق والاعور تطيرا عليه إذ كان أصح الطير بصرا ولعل ذلك أتاه من تعوده الوقوع في مواضع الدور يتلمس إذا بان أهلها للنجعة وبعضهم كان يضم اليه في الرحلة والنوى التطير بالابل لانها المفرقة للالاف ولكن ذلك لم يك بالكثير المقبول إذ أنها من جانب آخر آلة الوصلة واللقاء

٥ — العرافة والكهانة

العرافة هي القضاء بالغيب وكذلك الكهانة لا فارق بينهما غير أن من الناس من قصر العرافة على تعرف ما خفي من حوادث الماضي وجعل الكهانة للتكهن بما عسى أن يكون في المستقبل ولكن لم نجد أثرا بينا يسمح بهذا التخصيص وكل ما يمكن أن يعد فاصلا بين النوعين هو أن العراف كان دائما أقل من الكاهن وكان يستخدم خبرته غالبا في معالجة بعض الامراض ولهذا كان

مقصد المرضى وذوي الاسقام يؤيد ذلك ماورد من أشعار ومن أشهر العرافين بالتطبيب والغالب عليه التطبيب الروحاني رباح بن عجلة باليمامة والابلق السعدى بنجد . أما الكاهن فكان يفزع اليه فى تعرف الحوادث ويقصد فى المنافرة والخصومة للقضاء فيها بالحق من إدراك غيبه وكان من أشهر الكهنة فى العهد الجاهلى سطيح بن مازن الغساني وشق بن أنمار الانزرى وسواد بن قارب الدوسي والكتب الادبية والتاريخية ملأى بحوادثهم وحكاياتهم. هذا .

ويعلل العلماء الآن لحوادث الكهانة التي لاشك فى صدق بعضها لدى العرب وغيرهم من الامم القديمة فى مصر واليونان والرومان والهند والصين بارجاعها إلى ما أثبته العلم الحديث من السبات المغناطيسى وهو عبارة عن تخدير يحدث فى الجهاز العصبي الحسى تنفصل على أثره النفس من الجسم فلا تبقى مرتبطة به إلا ارتباطا خفيًّا لانها بهذا الانفصال تعود إلى جانب من حريتها الاصلية فتبدو منها تلك الادراكات الغريبة التى عجز الماديون عن شرح عللها والتى نسبتها الاديان فى رأيهم لتقريبها لاذهان الناس إلى الملائكة أو الشياطين ويقولون لما كان انفصال الروح عن الجسم لا يبلغ منتهاه مهما كانت درجة السبات إذ نهايته الحقة لاتكون إلا بالموت كان من الحتم أن يبقى شىء من الرابطة يعكر صفو هذا الانفصال فيتسرب الكذب إلى كثير من مدركات النائمين ومنهم الكهنة والعرافون الذين كانوا يلقون أنفسهم فى السبات لما ثبت من أن الاستعداد الشخصى فى النائم والمنوم قد يجتمع فى بعض الناس ومن ثم نهت الشرائع عن الركون إلى الكهنة وكانت العقيدة الحقة أن الله سبحانه هو وحده المستأثر بعلم الغيوب

٦ — الخط العربي

قد كان يجمل بنا ألا نعد الخط العربي من معارف العرب الجاهليين في شيء لانهم

كانوا أميين فى عموم البدو ومن قرأ أو كتب فى حصرهم كان خطه قاصرا وقراءته غير نافذة ولكن وجوده فيما تحضر من دولهم قديما باليمن والحيرة ولحجهم فى لغتهم بكثير من الالفاظ الموضوعة له ولادوات الكتابة ولو لم يعرفوها الى ما كان لهم فيه من شأن بعدالاسلام ارتكز على الخط الحيرى القديم كل هذا جعلنا لا ندعه دون كلمة عنه تعتبر تاريخية فى هذا الموضوع فنقول.

لا خلاف فى أن منشأ الخط العربى القديم كان يبلاد اليمن فى الخط المعروف بالمسند الذى ساد بها على عهد السبئيين والحميريين وهذا المسند يرجع الى الارامى وهو خط المعينين أقدم الامم الآرامية نزوحا الى هذه البلاد.والارامى مقتبس من الفينيقى المأخوذ من الخط المصرى القديم ولما انتقلت كندة وهى من كهلان الى شمال الجزيرة العربية انتقل معها المسند فعرف بالكندى ثم بالنبطى نسبة الى جيل عربى عرفه منها هناك ومن كندة والنبط أخذه أهل الحيرة والانبار فنسب اليهما وعنهما نقله الى مكة بالحجاز حرب بن أمية قبيل الاسلام فتعلمه عدد من أهلها كان منهم كتاب الوحى بعد على عهد رسول الله وبعد تأسيس الكوفة على مقربة من الحيرة عرف الخط الحيرى باسم الكوفى ثم أخذ يزداد زخارف وأنواعا على توالى الحضارات الاسلامية حتى وصل الى ما نراه الآن

ثانيا — المعتقدات

كان للعرب فى جاهليتها معتقدات شتى بعضها يجرى مجرى الشريعة والمذهب هى الاديان وبعضها يجرى مجرى العرف والعادة هى الاوابد .

١ — الاديان

ففى الاديان كانوا كثيرى المذاهب الى الحد الآتى

١ ـ عبدة الاصنام وهم الغالبية العظمى وعقيدتهم الاقرار للخالق بكل شيء ولكنهم ينكرون البعث وارسال الرسل ويعبدون الاصنام لتقربهم الى الله زلفى

٢ ـ عبدة الشمس أو القمر أو النجوم وعقيدتهم كعقيدة عباد الاصنام وكذلك موقفهم فى عبادتها فهم يتخذونها قربى الى الله لانها من دلائل عظمته وباهر آياته .

٣ ـ عبدة الملائكة طمعا فى خيرها والشياطين خوفا من شرها على أنها جند الله وهم فى العقيدة كالسابقين . ومثلهم عبدة الجن على أن فيها الخير والشرير

٤ ـ عباد النار كالمجوس وقد سرى اليهم ذلك من الفرس وبيوت النار عندهم كبيوت الله عند ذوى الكتاب

٥ ـ الصابئة وهم عباد الفلك الذين يعظمون بروج الشمس الاثنى عشر والكواكب السبعة السيارة ويثبتون لها ما يثبته الموحدون لله وقد سرى هذا المذهب اليهم من سكان بابل القدماء هذا على أنه قد كان فى الصابئة قبل الاسلام من عدل عن هذا إلى دين ابراهيم كما كان فيهم بعده من هو شديد الميل الى دين المسلمين ولذلك ذكروا فى بعض الآيات على أن منهم المؤمنين

٦ ـ الثنيون وهم القائلون بان الاله اثنان اله خير هو النور واله شر هو الظلمة وأنهما قديمان ثم يثبتون لهما من الصفات ما يثبته المؤمنون لله وهؤلاء هم الزنادقة

٧ ـ الدهريون ومذهبهم إنكار الخالق والبعث على أن الطبع يحيي والدهر يفنى

٨ ـ اليهود وكانوا فى يثرب واليمن

٩ ـ النصارى فى الشمال من ربيعة وغسان وفى الجنوب فى نجران

١٠ ـ الموحدون وكانوا آحادا يدينون بما تسرب الى العرب من ملة أبيهم ابراهيم والمعروف منهم قليل .

ب — الاوابد

وكذلك كانت لهم أوابد كثيرة ينزلون على حكمها ويعملون بها وأهمها .

١ - استقسامهم بالازلام وهي قداح مكتوب على كل اثنين منها الامر وضده كسافر أو لا تسافر مثلا فاذا ما أراد أحدهم شيئا ذهب الى سادن الوثن فأخرج له أحدها فعمل بما فيه

٢ - تفاخرهم بلعب الميسر وهو المقامرة بالقداح وعددها عشرة الفذ بنصيب والتوأم باثنين والضريب أو الرقيب بثلاثة والحلس باربعة والنافس بخمسة والمسبل أو المصلح بستة والمعلى بسبعة ثم السفيح والمنيح والوغد ولا أنصبة لها انما كانت تخرج فترد تضليلا لذوات النصيب. فكان من عادتهم اذ أرادوا اللعب أن ينحروا اجزورا يقسمونها عشرة أقسام ثم يأخذوا فى استخراج القداح بعد تقسيمها عليهم وكلما خرج قدح أخذ صاحبه نصيبه وعمدوا إلى النحر اذا قلت الانصبة الباقيه عن إيفاء اكبر قدح لم يخرج وفى هذه الحالة يكون الغرم فى ثمن ما نحر على ذوى السهام الباقية وهكذا حتى تنتهى جميع القداح فتنتهى النوبة

٣ - حمايتهم البحيرة بيحر أذنها أى شقها وهى الناقة تنتج البطن الخامس وكذلك كانوا يحمون السائبة وهى التى يسيبونها لنذر أو شبهه والوصيلة وهى أنثى البطن السابع للشاة واذا كان معها ذكر وصلته بالحماية وكذلك الحام وهو الفحل يخرج عشرة أبطن

٤ - إغلاق الظهر وهو جب سنام الفحل اذا بلغت الابل مائة ليمنع عنها العين ومثل ذلك التفقئة وهى فقء عينه اذا بلغت الفا فاذا زادت عنه كانت التعمية وهى الذهاب بعينيه جميعا .

٥ - ضربهم الثور لتشرب البقر على زعم أن الجن تركبه فتخيف البقر فاذا

ضرب ذهبت عنه ومثل ذلك كى السليم من الابل أمام الاجرب ليبرأ

٦ - ومن عقائدهم فى الميت أن يحتبسوا على قبره ناقة يربطون عنقها الى ذنبها مع تغطية رأسها فلا تزال كذلك حتى تهلك أو تنجو باعتدال عنقها أو انفكاك رباطها وكانوا يسمونها البلية ويسمون الغطاء الحشية ومن ذلك قولهم «رأس البلايا فى الحشايا». وكانوا يزعمون أن القتيل اذا قتل يخرج من رأسه طائر يدعى الهامة فلا تزال تقول «اسقوني اسقوني» طلبا لثأره حتى يدرك ومن عادتهم هنا عدم البكاء على القتيل ما لم يؤخذ بثأره

٧ - ومن عقائدهم فى المداواة تعليق الحلى على السليم وتسهيده سبع ليال ووضع منخل على رأس من تصاب شفته بالحلى مع المرور به فى الحى قائلين «الحلى الحلى» وكذا تعليقهم للصبي سن الثعلب والهرة وكعب الارنب دفعا للنظرة أو الخطف ورميهم سن الاثقار فى عين الشمس لتأتى بخير منها

٨ - ومن عاداتهم أيضا وأد البنات للعار والاولاد للفقر وقد شدد الاسلام النكير عليهما فى ذلك

٩ - ومنها ايقاد النيران وأشهرها نار القرى ونار الحلف ونار الهداية ونار الحرب ونار الفداء وهذه للنساء خاصه

ومنها غير ذلك كثير كوطء المقلاة دم الشريف ليعيش ولدها. وشق الرجل برقع محبوبته والمرأة رداء حبيبها الكيلا يفسد العشق وكى الاليتين ليذهب. وذكر الرجل أحب الناس اليه ليذهب خدر رجله. ومسح الطارف العين المطروفة سبع مرات لتسكن وهكذا مما يضيق المقام عن سرده فضلا عن شرحه فليرجع اليه فى مظانه على أنه سيأتي فى تدوين الشعر لاحوال العرب الاستشهاد على كثير من هذا بعد إن شاء الله

وبعـــــد

فقد آن لنا أن نشرع فى الادب الجاهلى بعد الذى ذكرناه بمثابة المقدمات له . غير أن ما جرى عليه بعض الباحثين فى هذا العصر من التشكيك فى وصوله الينا تشكيكا جعله فى نظرهم بعيدا عن الثقة والاطمئنان حملنى أن أصدر القول فيه بكلمة ترد عليهم شكوكهم وتبرهن على أنه محل ثقة واعتقاد كما حملنى هذا الاغراب منهم فى التفكير طمعا فى الاتيان بجديد وان لم يك ذلك الجديد بالمقبول أن أتبعها للرد عليهم أيضا بكلمة أخرى عن بحث لهم ثان ارتكبوا فيه مثل هذا الشطط وأشد ذلك زعمهم أن الشعر أسبق الى الوجود من النثر . فهاتان كلمتان جعلتهما فى صدر الموضوع وان كانتا من أبحاثه فى الصميم .

الادب الجاهلى

ألنا أن نطمئن اليه ندرسه ونرويه

ان لنا أن نطمئن

كانت العرب فى جاهليتها أمة فصاحة وكلام ولسن وبيان لامطعن هنا لطاعن ولا جدال ساقهم الى ذلك فطرة فطروا عليها من صفاء خاطر وذرابة لسان وحفزهم اليه طبيعة عيش اقتضت منهم أن يتغنوا ويرجزوا ويتفاخروا ويتعاكظوا حتى كان الكلام بضاعتهم النافقة به تعمر أسواقهم ويتناقله عنها حداؤهم وركبانهم فيدوى فى أرجاء جزيرتهم دويا تهتز به رمالها ويطرب له كل ذى حياة يعيش فيها ثم لايلبث أن تضيق به جوانبها فاذا هو قد جاوزها الى الامم الاخرى وقديما كان لكل أمة سمة تعرف بها فى غيرها وسمة العرب الكلام.

كان طبيعيا اذن أن تقول العرب وأن تكثر من القول وأن يتناول ذلك عصوى الادب اللتين عليهما نهض من نثر وشعر كل فى الغرض الذى من أجله كان وله درج ولكل مقام مقال. وكان طبيعيا مع هذا أن يتناقل السامعون كلام القائلين خلفا عن سلف ابقاء للاغراض التى قيل فيها ومحافظة على المآثر التى سجلها فاذا ماضممنا الى هاتين الطبيعتين ميزتين أخريين هما القدرة الفائقة

التى كانت معروفة للعرب على الحفظ واعتزاز كل قبيلة بمواد حسبها ومفاخرها ضنتنا بها أن تدول مضافا اليهما ما كانوا عليه جميعا من أمية جعلت دفاترهم رءوسهم ودواوينهم حفظ أقوالهم كان لنا أن نطمئن الى أن هذه المناقلة الكلامية تبقى ما بقيت هذه العوامل ذات كون وثقة وتأييد حتى يطرأ على العرب ما يغير هذه النواميس ويطبعها على غيرها وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ولكن شيئا من ذلك لم يكن حتى جاء الاسلام

جاء الاسلام والجزيرة العربية تدوي دوى النحل قد ضل غيرانه بكل مأثور من القول اعتز به حافظه وحرص عليه سامعه الى درجة لم يلههم عنها الاسلام بحدثه الاجل ودهشته العظمى فاستمروا من بعده طويلا يعقدون عكاظهم ويسترسلون فى مفاخرتهم ومنافرتهم وهل كان الاسلام الا متحديالهم فى بابهم ومنازلا اياهم من واديهم وقد جعل آيته الكبرى القرآن الكريم يساجلهم فى الفصاحة ويحاجهم بالبلاغة ثلاثا وعشرين سنة حتى امتلك عليهم ناصيتها واستل من ايديهم زمامها فألقوا اليه بقياد النثر وعكفوا هم على الشعر وهذه احدى الدواعى التى جعلت مأثور الشعر أكثر من مأثور النثر كما سنذكر فى محاكمتهما قلة وكثرة الى الطبيعة بعد

قد يقال كان للاسلام أن يغطى على القديم ويخذل الناس عن روايته ولكن كيف وقد أودع تعاليمه وأحكامه كتاب الله وهو الذروة فى البلاغة وحديث رسوله وهو المقفى له من بعده وليس من سبيل الى استمرار فهمهما والحرص على عدم استغلاق معناهما الا برواية لغة العرب والمحافظة على تفهم مأثورها وهذا لعمرى داع دينى دعا الى الرواية والمدارسة منذ فجر الاسلام وناهيك بالوازع الدينى وبخاصة فى ذاك العهد من حاث للهمم الى العمل ونائل من النفوس مكانة التقديس والاجلال

حرص المسلمون اذ منذ جاء الاسلام على أدبهم حرصهم على دينهم وها هو ذا عبد الله بن عباس رضى الله عنه فى تفسيره القرآن الكريم كان يجلس له ولدراسة الادب فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتضرب اليه أكباد الابل من أقصى الجزيرة وأبعد منه لسؤاله عن معاني كثير من مفردات القرآن ومحاكته فى معناها الى المأثور من كلام العرب فيروى فى ذلك الكثير من الاشعار وما بغائب عنا ما كان لنافع بن الازرق أحد رؤساء الخوارج إذ ذاك فى هذا الباب . ومن ثم كانت مذاكرة للادب القديم على عهد الخلفاء الراشدين بل وبالسنة بعضهم ثم حذا حذوهم فى هذا وبشكل أوسع دائرة وأبعد مدى ملوك بنى أمية فكانت مجالسهم مثاراً للادب يسوق اليه الاستمتاع واللهو والتسلى والقصص أو المفاخرة والمنافرة والخصومة واللدد الى ما كان قائماً بجوار هذا فى البادية مما استمر تظهر صوره بعكاظ طويلا وبمربد البصرة الذى خلقها إذ ركدت ريحها بل بسائر المجالس والمنتديات ومن هنا نشأت الرواية بالمعنى الاصطلاحى وكثر الرواة ولم يكد كاهل هؤلاء يثقل بالحفظ والتعليق حتى انتشرت الكتابة وكان التدوين فرفع عنهم ما أثقلهم وجعلهم يوجهون جهودهم الى ما صمدوا له بعد من البحث والتحقيق

هذه طريق لاعوج فيها ولا أمت درج فيها الأدب الجاهلى حتى وعته بطون الكتب فاذا بالكم الذى وصل الينا منه خاضع فى مقاديره لما يقتضيه العقل وتطلبه سنة البقاء . فالشعر وقد صار هم العرب وحده لما تقدم من غزو القرآن النثر غزوة قللت من شأنه وصرفت الاذهان عنه قد حفظ منه أكثر مما حفظ من النثر الذى درس معظمه قبل أن يتصل بطبقات الرواة والا وصلنا منه ما تنفد دونه الصحف وتجف المحابر لانه للجماعة والشعر لافراد على أن

من الاسباب الداعية الى قلة مأثورة أيضا ماهو سابق للاسلام اذ لاشك أنه أصعب من الشعر حفظا وأبعد استذكارا وهذه نظرية خضع لهاالنثرفى أقسامه كما خضع لها أمام الشعر فى جملته فكان أكثره رواية أيسره حفظا إما لقلة ألفاظه وصغر صوره كما فى الحكم والامثال التى سهل على الالسنة تردادها وكانت الحوادث تدعو الى استعمالها فوصل منها أكثر مما وصل من غيرها بينما يجزم العقل أنها لابد كانت قلة فى كثرة ونقطة فى لجة لصعوبة معالجتها وندرة الاشخاص القديرين عليها واما لانه مع طوله تقرب الى الشعر قليلا بالازدواج أو كثيرا بالسجع فكان فى ذلك الاتزان فى التقسيم والتوافق فى التقفى ماجعله سهل الحفظ على الذهن شديد الاعتلاق بالنفس ومن ثم نجد المروى من المسجوع أكثر من المزدوج وهذا أكثر من المرسل مع أن الطبيعة التى يخضع لها صدور الكلام تأبى الا العكس ولكن ماقيل شيء والذى روى شيء آخر ومن ثم أيضا لم يصلنا عن الجاهلية من الكلام المرسل الا القليل مع أنه كان الغالب الكثير ولولا أسباب خارجة عن كنه الواصل قد حملت على روايته لباد كما باد سائره فتعزية أكثم بن صيفى حكيم العرب لاحد ملوكها فى أخيه وهى مرسلة وكلمة قبيصة بن نعيم رئيس وفد بني أسد الى امرئ القيس عقب مقتل أبيه وهى مرسلة أيضا وفيها بعض ازدواج لولا مكانة الحادثتين ومن قال ومن قيل له لعفتا فيما عفا وزالتا فيما زال ولمثل هذه الاسباب الخارجة كان المأثور فى السجع عن الكهان أكثر من غيره لغرابة موضوعه واتصال بعضه بالعقيدة مع مافيه من اطالة التقفية وهذا حكم فيه ان لم يصدق كما صدق نسبة .

أفبعد هذه الطريق التى تكتنفها الطبيعة ويسايرها العقل يطعن فى الادب

الجاهلي ويرمي كله بالوضع والاختلاق لتوافه زادها فيه بعض الدساسين وأساطير وضعها عليه بعض القصاصين ومطاعن وجهت الى آحاد في جمهرة الرواة ثم يدعى بجرأة الى دراسته في صدر الاسلام وعصر بنى أمية كأن الزمان قد وقف وكأن شيئا من احداث الاسلام المزلزلة لم يك كان . ان هذا لاجحاف بالتفكير وظلم للعقول فالادب الجاهلي كثرة تتضاءل أمامها تلك الزعانف الموضوعة وصخرة تتكسر عليها هذه النفاخات الطائرة على انها اذ ألصقت به وهو منها براء لم يتلبس الامر فيها على رواته بل مازوها ميز الخبيث من الطيب ووسموها بميسم الزيف أمام الجيد الصحيح عرفوا ذلك شفاها حيث كان مرجع الادب الحفظ ثم دونوه واضعين أمامه أدلة التزييف حين التدوين فما بال المدعين هذه الدعوى ينسبونها اليهم تجديدا ويدعونها ابتكارا وآثار أقلام الاقدمين من أكثر من عشرة قرون تكاد تخرج اليهم من بطون الكتب فتسود عليهم صفحات وجوههم من هول مايقولون

أكان مايقولون حقا ولم تفطن اليه الشعوبية في القديم وقد مكثت قرونا تعير العرب ماشاء لها التعيير فتلتمس في كمالها نقصا وتجعل ماتظفر به من الحقير عظيما ثم لاتهتدى الى أن خير مايفخر به العرب وهو قديم أدبها ليس لها وانما هو شيء انتحلته زورا وادعته بهتانا فتقف أمام ذلك لاتقدم رجلا ولا تحير جوابا بينا يكفيها نقضه وحده مئونة الكد المتعب والكدح المضنى ألا انها وقفت لاعن خفاء وغيب ولكن أمام نور بهرها وسلطان قهرها لم يكد يلصق به كلف من ظلام أو ينسب اليه زيغ من ضلال حتى ميزه ذووه ورموا به بعيدا مزجر الكلب ومنبذ النواة ولقد كان من الرامين النابذين بعض الشعوبيين .

وأكان مايقولون حقا ويتركه فى الحديث جمهور المستشرقين دون أن يخوضوا فيه بالتجريح والتخديش فيسودوا ناصع بياضه ويصيبوه فى قدسه وجلاله بدل أن يرووه ويخدموه ويعترفوا به اعتراف من قهره الحق وأنطقه الواقع ثم يخرجوا من هذا بنتائج عن العرب قد يسوءهم تدوينها أولا يرتاحون الى اثباتها فعلوا ذلك ولم يشذ عنهم الا من أضله الله على علم فشايع التعصب الدينى وزحف الى الطعن فى دين العرب من طريق الطعن فى أدب العرب فأخذ ما ميزه الرواة لينبذ فأثبته وما فحصوا عنه ليستبعد فقربه ومع ذلك لم يشايعه بنو جنسه ومنهم بعض رجال الدين وإن للحق لأنصارا حيث تظن الظنون وتتوقع الخصوم

وإذا كان الأدب الجاهلى كله دسا وتدخيلا فما هو اذن الأدب الذى كان يروى فى صدر الاسلام والدولة الاموية قبل أن يخلق الدساسون أمثال حماد الراوية فى النصف الاول من القرن الثانى وخلف الاحمر من بعده فى نصفه الأخير. وهلا اذا كان الدس يقع جزافا وبغير حساب كان الاولى بالدساسين أن يستكملوا لنا مواضع نقص فى أدبنا كانت ولما تزل فاغرة فاها حتى يكون ذلك أسوغ لقولهم وأستر لدسهم كأن يدسوا بعضا من خطب على رجال جاهليين ضرب المثل بفصاحتهم فى الخطابة وكانوا فيها حكاما وعلى أهلها قواما وليس للواحد منهم فى المأثور شىء أوله مالا يتعدى الكلمة والكلمتين أليس لأن الامر لم يك كما يتخرصون فوضى سبهللا لاضابط له ولا رادع عنه. وهل يقبل منا أن نمرر المدسوس على رجال النقد وأرباب الكلام فى عصور التدوين والتأليف ثم نزعم لانفسنا الآن أنا به أعرف ولم أميز وهل ميزنا غير ميزوا الا ماسقناه قولا بلا حجة ونتيجة من غير مقدمة

ثم يقولون إن اختلاف الرواية دليل على الدس والله نشهد أن الروايات فى عهد يقع الاعتماد فيه على الحفظ وحده دون كتاب يسند أو نقش يؤيد لو اتحدت ولم نر فيها ما رأينا من خلاف هو الطبيعى المعقول لكان لنا أن نتخذ الاتفاق دليل الدس فكيف يتخذ الاختلاف دليلا علينا وهو لنا ويساق ضدنا وهو حجتنا

آن للمجددين بالمعنى الذى يقحمون فيه كلمة التجديد لا بالمعنى الذى نحترمه نحن أن يرعوا للقديم عهده ولحق البحث حرمته وألا يتجاوزوا فى الأدب الجاهلى ميز المدسوس عنه الى نقضه من أساسه فانهم اذا نقضوه وماهم ببالغيه ثم عادوا بعد ذلك يبنون وقع بناؤهم على غير أساس فاذاما نفخوا فيه وصوروه وتساندوا اليه فأقاموه لا يلبث أن يخونهم وينهار « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض كذلك يضرب الله الامثال »

المنثور والمنظوم

أيهما أسبق إلى الوجود

انا نقول بسبق النثر على الشعر

أظنه من الملائم فى هذا المبحث أن يعرض المتصدى له أولا وقبل كل شيء للمعنى العام الذى يفهم من كلتا كلمتى نثر و نظم حتى إذا ماجلاه وأبان عنه وجعل الفارق بين المعنيين واضحا ملموسا عمد إلى هذا الفارق يحاكمه إلى الطبيعة ويستهديه القول فاذا هو الحكم الفصل والحق المبين . وأظنه من السهل محاولة ذلك مادامت كل كلمة فى ظاهر لفظها تمدنا بالمعنى الذي ينبغى أن يكون الوجه فى التفرقة والعامل على التميز وأن ماعداه من مدلولات ليس إلا ضمائم متممة مهما انحازت الى أحد الجانبين وظهرت فيه بمظهر المختص الملازم لاتعدو أن تكون شركة بينهما غير ناهضة وحدها أن تصلح فصلا . فما هو ذلك المعنى البارز الذى تحمله كل كلمة والذى من أجله قدمنا تلك التقدمة وله صدرنا هذا التصدير هو بلا اجهاد فى الفكرة ولا اطالة فى التعبير أن يلتزم الشاعر فى شعره وزنا وقافية يجعلانه مقيدا منظوما ويتحرر منها الناثر فيجيء كلامه مطلقا منثورا. واذن النثر أبسط من الشعر وفى الشعر كلفة ليست فى النثر والنثر أقرب منالا ورجاله أكثر عددا والشعر أصعب محاولة والشعراء آحاد فى أوساط الناس وهنا نسأل نواميس الطبيعة والكون وعوامل النشوء والارتقاء أيهما لذلك يجب أن يكون أسبق كونا وأقدم وجودا فيكون الجواب لامحالة ما أجبنا به آنفا من أن النثر أسبق من الشعر

وليس انحيازنا فى التفرقة بين النثر والشعر الى جانب اللفظ دون المعنى لاننا لانعبأ بالمعانى أو لأننا نسوى بينهما فيها فما نجهل أقل العالمين بالأدب أن الشعر يعتمد على الخيال أكثر مما يعتمد على الحقيقة وأنه يستوحى الشعور أكثر مما يستوحى التفكر على عكس النثر فيهما ولكن مهما أغرقنا فى التفرقة المعنوية فليس فى استطاعتنا أن نباعد بين الخيال والنثر ولا بين الشعر والحقيقة فكم نثر أوغل من شعر فى التخيل والتصوير والتعبير عن الوجدان والشعور وكم شعر هو وعاء الحكمة والفلسفة وأدخل فى باب التفكير منه فى باب الخيال انما انحزنا إلى جانب اللفظ للابانة عن وجه التسمية بالنثر والنظم وأنها لم تك عبثا ولم تأت اعتباطا انما وضعها الواضعون عن بصيرة وفكر لتكون خير معبر عن الفارق وأوضح مترجم عن التمييز نعم عطف الواضعون على النظم فوضعوا له اسما آخر هو الشعر اشارة منهم إلى أن الوزن والتقفية وان وقعت بهما المفاصلة والمخالفة ليسا وحدهما المكونين للشعر بل لا بد أن يغلب على معناه الشعور حتى يكون اغترافه من ينابيع العاطفة والخيال أكثر مما يغترف من ينابيع الحقيقة والتفكير .

يقولون المخالفون فى الفكره إذا كان النثر أسبق من الشعر فمابالنا نجد للامم القديمة شعرا ولا نجد لها نثرا ولكن فاتهم أن تلك قضية لا نفهمها كما أصدروها ولا نستسيغها كما هيئوها الا إذا سلمنا لهم بقضيتين أخريين كلتاهما أبعد عن العقل من الاخرى

فأما أولاها فانهم يعنون بالأمم القديمة أول مايعنون اليونان والرومان فينفون عنهما النثر ويستبقون الشعر كأنما كل افراد هاتين الامتين أو أفذاذهما كانوا شعراء وكأنما لم تهيء أحوالها الطبيعية — والأولى أمة فلسفة ومنطق

والثانية أمة تقنين وتشريع ثم هما معا أمتا حكم وفتوح — أحدا من رجالاتهما ليدافع عن فكرة أو يعلل لقانون أو يدعو إلى حرب وقتال . فلا كان الاسير مع العقل والاطوع للفكر أن يقولوا كان لها نثر وشعر ولكن الشعر كان قليلا والقليل محروص عليه فوعته الافهام وتناقلته الرواة فى وقت تفشو فيه الامية وتندر أو تنعدم الكتابة التى لا يتسع لقيد النثر سواها ثم الشعر مع ذلك أيسر حفظا وأكثر ذيوعا نعم كان لهم أن يقولوا ذلك فيقبل القول ويستقيم الاستنباط ويكونوا منطقيين كما يدعون

وأما الثانية فانهم يريدوننا على أن العرب فى جاهليتها لم يك لها نثر وأن ما أثرعنها موضوع مختلق وهذا لعمرى تهجم على العقل ومطالبة لنا أن نكون أمامهم أشباح أناسى لا أناسى ذوى عقول والا فكيف لم يك للعرب فى جاهليتها نثر وقد تحداهم القرآن الكريم فى النثر ووصفهم بأنهم كانوا قوما لدا واللدد فى اللغة شدة الخصومة والمحاجة تمشيا مع ماهو مقرر معروف من أن التحدى لا يحتفظ بكيانه ولا يكون له قوامه الا اذا وقع لكل أمة فى الباب الذى تزعم فيه نبوغا وتدعى لنفسها عليه قوة واقتدارا وإذا كان الامر هنا كما يقولون أفما كان الاجدر بالقرآن أن ينزل كما نزلت سائر الكتب قبله بلغة لا يرتفع فيها الى ذروة الفصاحة كما ارتفع حتى يكونوا أفهم لمعانيه وأقدر وقد نزل لهم على الانتفاع بما حواه ثم يلتمس النبي للتحدى منحى آخر غير الفصاحه والبيان وإذا أبي المخالفون إلا الفصاحة والبيان فان فى مقدورنا مجاراة لهم أن نقول كان ينبغى لذلك أن ينزل القرآن شعرا لا نثرا لانهم لازالوا يدينون لبعض الجاهليين بالقدرة على قول الشعر لولا أن فى تلك المجاراة هدما لما لا نرتضى ولا يرتضون فقد جرد الله نبيه من أن يكون شاعرا كما جرده من أن يكون قارئا وباعد بين القرآن والشعر فأعجز به منثورا أمة ذات قدرة فائقة على النثر

وقدأثر عنها فيهمايؤيد تلك القدرة ويشهد بهاولـكن ضاع معظمه وبقى القليل خضوعا لسنة الـكون فى الاضاعة والابقاء فلا محل اذن للشك فى هذا القليل انما الوجه فى الشك يكون إذا كثر أو باد

ويقولون أيضا إن فى عوام الأمم الحديثة من يقول الشعر بلغاتهم بينما لايحسن أحد منهم النثر وهـذا قول نسلم بشطره الاول دون الثانى فان من يختلط بطبقات العوام ويرقب عن كثب مجرى أحاديثهم ومحاوراتهم يجد فيهم كما نشهد فى عوام المصريين مثلا سمارا تدار حولهم الحلقات وترهف اليهم الاسماع فلا يزالون يلقون من عذب الحديث وجميل القصص مالو كان هناك تدوين للغتنا العامية لكان فى الذروة من نصوصها والقمة من آدابها . وان فى تراشق امرأتين تختصمان فى أحقر الازقة وأدنأ الحارات لروعة لهذا الخصام وقوة بيان لمناحيه لاتقل عن مثيلاتها فى محاورة أو منافرة مما دون للغة مثالا لقوة العارضة وآية على الاقتدار . وهل تجردت حياتنا العامة من حوادث تدفع ذا رعاية ورياسه أن يحرض ويستنهض أو يخوف ويسترجع وذا قرابة ولحمة أن يوصى ويرشد ويعظ ويذكر أم هل خلت عاميتنا من حـكم وأمثـال تضارع فى قوة المعنى وشدة الايجاز نظائرها القديمة وتحتل من قلوب السامعين الآن ما كانت تحتله تلك فى القديم . لى لم تخل فى نثرها من شىء هو لنثر أختها العربية ولـكن كثرته واقتدار السواد عليه صرف الاذهان عن تناقلهوروايته إلى شعرها الذى خلا من كثير مما حواه الشعر الصحيح فقل قائلوه واستخدم دون النثر فيما كان أبقى له وأدعى إلى حفظه من حداء وغناء مع مافى طبيعته فضلا عن تلك الحاجة وهذى القلة من سهولة الحفظ وسرعة الاستذكار

ثم هم يقولون ان الشعر وجد قبل النثر وحين ضاقت أوزانه عن مظاهر العقل تحال الانسان منه إلى الشعر ومعنى هذا ان كانت لنا عقول ان العقل

الانساني فى طفولته كان قديرا على أن يعبر عما يريده بهذا الكلام الموزون المقفى ولكنه بعد أن ترقى وجاوز دور الطفولة والادوار التى أعقبته فتم نضجه واستوى ارتد عاجزا عما كان عليه قديرا ولجأ فى تعبيراته إلى الكلام المطلق من قيد التقفية والوزن . بأنه حكما عليه من أولئك المخالفين إلا أن يعاند الطبيعة وما اتفق عليه الناس مرغمين دون أن يكون لهم إلى الخلاف فيه لو أرادوه سبيل ولسنا ندرى أيذكرون نتيجة لهذا أن الانسان خلق متحضرا ثم تبدى أم يزعمون أن اللغة وحدها شذت عن هذا الناموس العام أو أن الشعر على فرض سهولة التقفية والوزن خلو من كل منطق وتفكير. الحق أنا لا ندرى عنهم ماذا نقول. فالشعر بالغا ما بلغ من تصور وخيال لا غنى له فى ذلك وفى مراعاة وزنه وقافيته عن عقل يسدى وفكر يهدى لما بالنا اذا كان بالفلسفة ناطقا ولادق نزعات العقل مصورا وقديما شبهوه بالدر المنظوم وما كان النظم بغير مجهود وتدبير وقالوا ان من الشعر لحكمة وما خلا منها منذ عرف فى سالف الحقب وسابق الزمان .

بقيت قالة أخيرة حملهم عليها التسليم ببعض الواقع هى قولهم إنا نقصد بالنثر المسبوق بالشعر النثر الفنى ولكنهم فى عجز أو تعاجز عن تحديد هذا النوع الذى يريدون لانهم ان أرادوا بالفنية الاجادة التى نطالعها فى أنواع المنثور من حكمة ومثل وخطبة ووصية ومفاخرة ومنافرة على أن يسلموا للجاهليين فى ذلك بما هو مأثور قلنا لهم إن النثر قد بلغ اذن قبل الاسلام درجة لا تقل فى مداها وقوة فصاحتها عما وصل اليه الشعر إذ ذاك وأن تلك الدرجة ما كانت لتكون دون أن يضرب النثر فى القدم إلى قرون يتقدم فيها الشعر أو يكون طفلا يحبو بينا النثر قائم يجرى على قدمين هذا إلى ما قدمنا من السنة القاضية بسبق البسيط على المركب واليسير على العسير وما تلا ذلك من مناقشة ما يقولون

فان انكروا هذا المأثور كما يدعون رددنا عليهم ذلك الانكار بما لا سبيل لهم معه إلى كلام لانهم يعترفون بما ورد عن صدر الاسلام من كل هذه الانواع ثم يعترفون مع ذلك بما لها من فنية فائقة على هذا الاعتبار ضاربين المثل بكلام رسول الله والصحابة وكثير من المخضرمين فهل كان هؤلاء جميعا قبيل الاسلام من الفهاهة بحيث يزعمون ثم انقلبوا بين عشية وضحاها نثرين مهمرين؟ انا ننتظر منهم الجواب. أما إذا حددوا الفنية بالكتابة وأساليبها وصناعة الانشاء ونظمها مما يسوق اليه تحضر الامم ويدفع به تقدم العمران فانهم ينصرفون بذلك التحديد إلى ما انصرف اليه الناس واذن فلا جدة ولا خلاف ولكن ذلك لا يرضيهم لانهم يأبون فى هذا شأنهم فى غيره إلا أن يكونوا مجددين وذوى خلاف

النثر الجاهلى

أقسامه وأنواعه

اذا تتبعنا مادة المنثور الجاهلى لنرى كيف تتألف ألفاظها وتترابط أجزاؤها نجد أن منها ما تحرر من كل قيد فأطلق الناثر الكلام فيه اطلاقا وأرسله ارسالا ومنها مافصله جملا يزاوج بين كل اثنتين أو أكثر منها ومنها ما أضاف فيه إلى هذا الازدواج اتحاد التقفية فى الفواصل فهو اذن ثلاثة أقسام قسم خلا من الازدواج والتقفية هو المرسل وآخر كان فيه الازدواج فى الفواصل دون التقفية هو المزدوج أو المفصل وثالث ضم إلى الازدواج التقفية هو المسجوع ولا حاجة بنا بعد الذى تقدم فى سبق النثر على الشعر أن نقول هنا إن المرسل لا بد وجد قبل المزدوج وهذا تقدم المسجوع فان ذلك من الضرورى المفهوم انما الحاجة أن نقول إن السجع احدى الحلى اللفظية ذات التأثير البين إذا جاء عفوا غير متعمد ولذا التزمه الكهان والعرافون وأطالوا فيه لحسن وقعه على الاسماع وشدة تأثيره فى الطباع وسيتضح كل هذا فيما سنسوقه من نماذج لأنواع النثر فله أنواع كما للشعر فنون هى الحكم والأمثال. والمفاخرات والمنافرات. والخطب والوصايا. وهاهى ذى

١ — الحكم والامثال

الحكمة قول رائع يتضمن حكما صحيحا مسلما به. والمثل قول محكى سائر يقصد منه تشبيه الذى حكى فيه بالذى قيل لاجله وهما صورة للكلام تصل إلى

الغاية القصوى فى البلاغة من حيث ايجاز اللفظ واصابة المعنى وحسن البيان فترتاح اليها الطباع وتنشط لحفظها النفوس وتميل إلى الاحتجاج بها العقول لانها تورث الكلام رواجا وتكسبه حسنا وقبولا. وكما تكون الحكم والامثال نثرا تقعان شعرا ولكنهما فى النثر أو فى عددا وأكثر دورانا ولذلك عدا من أنواعه لا من فنون الشعر

ولقد فاضت الحكمة على ألسنة الكثيرين من العرب لما أفاض الله على هذه الامة فى بداوتها من سلامة الفطرة ورجحان الفكر فكثر فيهم العقلاء الذين تفجرت ينابيع الحكم على أيديهم فعرفوا بالحكماء وانصاع اليهم السادة والاشراف للتقاضى فى المنافرة وفض المنازعة فى الخصومات فكان قولهم مرضيا وحكمهم حتما مقضيا نذكر منهم على سبيل التمثيل أكثم بن صيفى التميمى وعامر بن الظرب العدوانى

فأكثم كان من حكماء تميم وحكامها ذا فصاحة وبيان وعلم بالأنساب والاخبار ومن حكمه. ويل للشجى من الخلى ، ويل لعالم أمر من جاهله ، مقتل الرجل بين فكيه ، إن قول الحق لم يدع لى صديقا ، فى طلب المعالى يكون العناء ، لم يذهب من مالك ما وعظك ، يتشابه الامر إذا أقبل فاذا أدبر عرفه الكيس والاحمق ، نعم لهو المرأة المغزل . وقد كان جل كلامه فى المجامع مبنيا على الحكمة وضرب المثل كما هى الحال فى خطبته أمام كسرى فى وفود العرب وفى وصاته لقومه حين ظهر النبى صلى الله عليه وسلم ولبنيه حين حانت وفاته فقد جاءت كلها ملأى بالحكم الناصعة والعظات البالغة

وعامر كان من حكام قيس وذوي المكانة فيها ومن كلامه. رب أكلة تمنع أكلات ، رب زارع لنفسه حاصد سواه ، الرأي نائم والهوي يقظان ،

ويل آمها نصيحة لو كان من يقبلها ، من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له وكان الباطل أولى به ، من طلب شيئا وجده وان لم يجده أوشك أن يقع قريبا منه، إن مع السفاهة الندامة والعقوبة نكال وفيها ذمامة ، لو كان يميت الناس الداء لاحياهم الدواء

ويوجد غير هذين حكماء كثيرون وحكيمات كغيلان بن سلمة الثقفي وربيعة بن حذار الاسدى وسلمى بن نوفل الكناني وعمرو بن حممة الدوسى وذى الاصبع العدواني وكهند بنت الخس الايادية ، وحذام بنت الريان اليمنية. ومن أقدم حكماء العرب لقمان وينسب اليه من الحكم. رب أخ لك لم تلده أمك ،الصمت حكم وقليل فاعله ، آخر الدواء الكي. ولكن العبرانيين ينازعون العرب فيه ويدعونه لا نفسهم ويروون له حكما فى كتبهم وليس لأحد الطرفين دليل حاسم ضد الآخر كما أن كثيرا من الحكم نسبت اليه على سبيل الشهرة لا التحقيق لمجيئها غفلا من النسبة إلى ذويها ولصعوبة القطع فى معظم الحكم بنسبتها إلى قائليها لكثرة ترددها على الالسنة وتداول الاستشهاد بها فى الكلام

هذا وكما كانت العرب قديرة على قول الحكم كانت كذلك وأقدر فى ضرب الامثال فليس بينهما من فرق سوى أن المثل لا بد فيه من أصل واقع ينقل عنه وقد يفرض له ذلك الاصل فرضا إذا صدر عن حيوان أو نبات أو جماد وتعرف أمثال النوع الاول بالحقيقية والثانية بالفرضية . والامثال بنوعيها مرءاة ترينا أحوال الامة فى كثير من نواحيها وميزان نزن به إلى قدر أدبها ولغتها ورقيها وانحطاطها

ولقد عنى السلف عناية كبيرة بتدوين الامثال. ومن خير ماوصلنا فى هذا الباب جمهرة الامثال لأبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ ه ومجمع الامثال لابي الفضل الميدانى المتوفى سنة ٥١٨ ه وهو أنظمها وأوفاها ففيه أكثر من

ستة آلاف مثل رتبت على حروف المعجم وفى آخر كل باب منها ما جاء على أفعل للعرب ثم للمولدين وهذا بعض من كل نوع

الامثال الحقيقية

١ — تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها . يضرب فى صيانة الشخص نفسه عن خسيس الكسب وهو للحارث بن سليل الاسدى يقوله لامرأة تزوجها على كبر منه وهى شابة فلما بنى بها بكت فقال المثل وطلقها .

٢ — الحديث ذو شجون . يضرب للقول يجر بعضه بعضا وقائله أد بن طابخة

٣ — سبق السيف العذل . يضرب للفائت يستحيل تداركه وقائله ضبة ابن أد بن طابخة

٤ — ما يوم حليمة بسر . يضرب فى كل أمر متعارف مشهور وقائلته حليمة بنت الحارث بن أبى شمر الغسانى وكان أبوها وجه جيشا الى المنذر بن ماء السماء اللخمى فأخرجت للجنود طيبا طيبتهم به وكان يوما مشهودا فقالت المثل

٥ — قطعت جهيزة قول كل خطيب . يضرب لمن يقطع على الناس ما هم فيه بحماقة يأتى بها وسببه أن قوما اجتمعوا يخطبون فى صلح بين حيين قتل أحدهما من الآخر قتيلا ويسألون الرضا بالدية وبينما هم فى ذلك جاءت أمة يقال لها جهيزة قائلة (إن القاتل قد ظفر به بعض أولياء المقتول فقتله) فقالوا عند ذلك هذا المثل .

٦ — إن أخاك من واساك . يضرب فى الحث على مراعاة الاخوان وقائله خريم بن نوفل الهمدانى .

٧ — ان العوان لا تعلم الخمرة . يضرب للعالم بالامر المجرب له والعوان المرأة النصف بين الفارض والبكر والخمرة هيئة الاختمار وهو لبس الخمار

٨ — ان خيرا من الخير فاعله وان شرا من الشر فاعله : يضرب فى الحث على فعل الخير والبعد عن الشر وقد ورد على لسان واعظ لعمرو ابن هند

٩ — ان غدا لناظره قريب . يضرب فى الامر يرجي قرب وقوعه وقائله قراد بن أجدع للنعمان بن المنذر حين قال له ما أراك الا ها لكا غدا فقال المثل

١٠—١٩ هذا وقد تستتبع الحادثة الواحدة ضرب أمثال عدة ومن أجمع الحوادث فى ذلك ما رووه فى أصل المثل (ثكل أرأمها ولدا) من أن رجلا يقال له بيهس كان سابع سبعة إخوة فأغار عليهم ناس بينهم وبينهم حرب فى ابل لهم فقتلوهم الا بيهس هذا تركوه لانه كان يحمق وكان أصغرهم ولم يشاءوا أن يحسب عليهم رجلا ثم انهم نحروا جزورا وكان اليوم قائظا فقالوا ظللوا لحكم لا يفسد فقال بيهس (لكن بالاثلاث لحم لا يظلل) فذهبت مثلا ولما أخذوا يشوون ويأكلون قال أحدهم ما أطيب يومنا هذا وأخصبه فقال بيهس (لكن على بلدح قوم عجفى) فذهبت مثلا ثم أتى بيهس أمه فأخبرها الخبر فقالت وما أتى بك من بين اخوتك فقال (لو خيرت لاخترت) فأرسلا مثلا ولما أخذت أمه تعطف عليه وترق له قال الناس لقد أحبت أم بيهس بيهسا فقال (ثكل أرأمها ولدا) فذهبت مثلا ثم ان أمه أخذت تلبسه ثياب اخوته فيلبسها ويقول

(حبذا التراث لولا الذلة) وهذا مثل أيضا وحدث أنه مر على نسوة يصلحن عروسا لاهدائها إلى بعض قتلة إخوته فرفع ثوبه حتى غطى رأسه فقلن له ويحك ماتصنع يابيهس فقال (البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها واما بوسها) فذهبت مثلا ثم انه جلس مرة يأكل وحده ويقول (حبذا كثرة الايدى فى غير طعام) فأرسلها مثلا وقالت أمه لايطلب هذا بثأر أبدا فقالت لها امرأة سمعتها (لا تأمنى الاحمق وفى يده سكين) فذهبت مثلا ثم انه علم أن أناسا من أشجع ومنها قتلة إخوته فى غار فجاء إلى خال له يدعى أبا حنش فقال له (هل لك فى غنيمة بارده) فأرسلها مثلا ثم انطلقا حتى اذا كان على باب الغار دفع بخاله وقال ضربا أبا حنش فقال من فى الغار ان أبا حنش لبطل فقال أبو حنش (مكره أخاك لا بطل) فذهبت مثلا كان العاشر فى هذه الحادثه

الامثال الفرضية

١ ــ كيف أعاودك وهذا أثر فاسك . تزعمه العرب على لسان حية كانت فى واد . فنهشت رجلا فقتلته فذهب أخوه ليقتص منها فعاهدته على أن يتركها وتعطيه كل يوم دينارا ومكثا على ذلك دهرا ولما أثرى الرجل ذكر أخاه وصمم على قتل الحية ولكنه لما ضربها بفأسه أخطأها وأثرت الفاس فى باب جحرها ثم انها قطعت عنه الدينار فندم فقال لها هل لك فى أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه فقالت (كيف أعاودك وهذا أثر فأسك) فذهبت مثلا يضرب لمن لا يجاب إلى عهد لظهور آثار غدره

٢ ــ انما أكلت يوم أكل الثور الابيض . يروى على لسان ثور من ثلاثة أبيض وأسود وأحمر كن فى أجمة ومعهن فيها أسد لا يقدر على أحد منهن لاجتماعهن فقال يوما للاسود والاحمر لو تركتماني آكل الابيض لصفت لنا الاجمة لأن لونه مشهور يدل علينا فقالا دونك فكله فأكله

وبعد أيام قال للأحمر لوني لونك فدعني آكل الاسود لتصفو لنا الاجمة فقال دونك فكله فأكله حتى إذا كانت أيام أخر قال للاحمر اني آكلك لامحالة فقال ولكن دعني أنادي ثلاثا قال افعل فنادى (إنما أكلت يوم أكل الثور الابيض) فأرسلها مثلا يضرب لمن يسلم فى أعوانه فيكون فى هذا التسليم هلاكه

٣-١١ هذا ومن الحوادث الفرضية ما يستدعى صدور جملة أمثال كما تقدم فى الحقيقة ومن ذلك ما تزعمه العرب من أن أرنبا التقطت تمرة فاختلسها الثعلب فأكلها فانطلقا يختصمان إلى الضب فقالت الارنب يا أبا الحسل قال (سميعا دعوت) قالت أتيناك لنختصم اليك قال (عادلا حكمتما) قالت فاخرج الينا قال (فى بيته يؤتي الحكم) قالت اني وجدت تمرة قال(حلوة فكليها) قالت فاختلسها الثعلب قال (لنفسه بغى الخير)قالت فلطمته قال (بحقك أخذت) قالت فلطمني قال (حر انتصر) قالت فاقض بيننا قال (قد قضيت) ثم قال (حدث حديثين امرأة فان لم تفهم فأربعة). فهذه تسعة أمثال على لسان الضب يضرب كل منها فى مثل ماقيل لاجله وهى مروية فى مضرب المثل (فى بيته يؤتى الحكم) وفى هذا القدر من الامثال كفايه

٢ ـــ المفاخرات والمنافرات

المفاخرة كلام يجرى بين اثنين أو أكثر أو على انفراد تمدحا بالخصال ومباهاة بالاصول وكان للعرب بها ولع شديد وافتنان كبير لانهم كانوا قبائل وبطونا بينهم من التناحر والتنابز ما أجج فيهم نيران الحروب وجعل كلا على تمام علم بمآثره ومخازى سواه فتناولهم النزوع إلى المفاخرة من القمة إلى القاع

فيما بينهم وبين غيرهم من الامم كالفرس والروم وبينهم وبين أنفسهم فى يمن ونزار ثم فى ربيعة ومضر وفى بكر وتغلب من ربيعة وقيس وتميم من مضر وكذلك بين قبائل اليمن بعضها وبعض وهكذا لم يزل يتغلغل التفاخر فى بطونهم وأفخاذهم حتى تناول ابنى العم فى العشيرة الواحدة فكان على أشده وفى منتهاه.

وكانت المفاخرة نوعا متميزا من أنواع المنثور وكالمفاخرة المنافرة وهى مثلها وأشد فى هذا الباب كان الرجلان إذا تنازعا الفخر وادعى كلاهما الفوق على صاحبه نفرا إلى حاكم يرضيانه ليقضى بينهما فمن فضله على صاحبه كان له غنم الحكم وعلى صاحبه غرم الجعل المفروض من الابل أو غيرها وكلا النوعين كثير الامثلة والوقائع

فمن المفاخرة ماروى من أن كسرى قال للنعمان بن المنذر يوما هل فى العرب قبيلة تشرف على قبيلة قال نعم قال فبأى شىء قال من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ثم اتصل بكمال الرابع فالبيت من قبيلته فيه وتنسب اليه قال فاطلب ذلك فطلبه فلم يصبه إلا فى آل حذيفة بن بدر الفزارى وآل حاجب بن زرارة التميمى وآل بسطام ابن قيس الشيبانى وآل الاشعث بن قيس الكندى فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائرهم عند كسرى وقال ليتكلم كل رجل منكم بمآثر قومه وليصدق فكان حذيفة بن بدر الفزارى أول متكلم وكان ألسن القوم فقال قد علمت العرب أن فينا الشرف الاقدم والعز الاعظم ومآثر للصنيع الاكرم فقال من حوله ولم ذاك ياأخا فزارة قال ألسنا الدعائم التى لا ترام والعز الذى لا يضام قيل له صدقت. ثم قام الاشعث بن قيس قبل ربيعة وتميم لقرابته من النعمان فقال قد علمت العرب أنا نقاتل عديدها الاكثر وزحفها الاكبر وأنا غياث الكربات ومعدن المكرمات فقالوا ولم ياأخا كندة قال لانا ورثنا ملك كندة فاستظللنا بأفيائه

وتقلدنا منكبه الاعظم وتوسطنا بحبوحه الاكرم. ثم قام بسطام بن قيس فقال قد علمت العرب أنا بناة بيتها الذى لا يزول ومغرس عزها الذى لا يحول قالوا ولم يا أخا شيبان قال لانا أدركهم للثار وأضربهم للملك الجبار وأقومهم للحكم وألدهم للخصم. ثم قام حاجب بن زرارة فقال قد علمت العرب أنا فرع دعامتها وقادة زحفها قالوا ولم يا أخا تميم قال لانا أكثر الناس عديدا وأنجبهم طرا وليدا وأنا أعطاهم للجزيل وأحملهم للثقيل وبعدئذ قام قيس بن عاصم السعدى فقال لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم فى المكرمات دعائم وأثبتهم فى النائبات مقادم قالوا ولم يا أخا سعد قال لانا أدركهم للثار وأمنعهم للجار وانا لا ننكل اذا حملنا ولا ترام إذا حللنا. فقال كسرى حينئذ : — ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه وأسنى حباءهم وأكرم مآبهم

ومن المنافرة ما كان بين خالد بن مالك النهشلى والقعقاع بن معبد بن زرارة التميمى فقد تنافرا إلى أكثم بن صيفى أيهما أكرم وجعلا بينهما مائة من الابل تكون على المفضول فطلب اليهما أكثم أن يرجعا عما جاءا اليه فأبيا فكره أن يحكم بينهما ولكنه حبس الابل وبعث بهما إلى ربيعة بن حذار الاسدى ليقضى بينهما فلما قدما عليه وأخبراه بما جاءا من أجله قال هاتيا مكارمكما فقال خالد أعطيت من سأل وأطعمت من أكل ونصبت قدورى حين وضعت السماك ذيولها وطعنت يوم شواحط فارسا فجللت فخذيه بفرسه فقال وما عندك ياقعقاع فأخرج قوس حاجب بن زرارة وقال هذه قوس عمى حاجب رهنها عن العرب ووفى بها وهاتان نعلا جدى زرارة قسم فيهما أربعين مرباعا وهذا زربيه لم ير ناره خائف الا أمن ولم يمسك بطنب فسطاطه أسير الافك فنادى ربيعة بن حذار إن السماحة واللهى والمرباع والشرف الاسبغ للقعقاع ألا انى نفرت من كان ابوه معبدا وعمه حاجبا وجده زرارة

هذا وكثير ما كان يعمد الحكم الى الصلح بين المتنافرين تفاديا للشر وحسما للخلاف فيقع كلامه فيهما من أروع الخطب فى الدعوة الى السلام والاعتصام بحبل المودة والوئام ومن ذلك ما كان من هاشم بن عبد مناف فى خزاعة وقريش حين نفرتا اليه فقد خطبهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة قال :ـ

أيها الناس نحن آل ابراهيم وذرية اسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو قصى بن كلاب وأرباب مكة وسكان الحرم . لنا ذروة الحسب والنسب ومعدن المجد ولكل فى كل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته الا مادعا الى عقوق عشيرة وقطع رحم

يابنى قصى أنتم كغصن شجرة أيهما كسر أوحش صاحبه والسيف لا يصان إلا بغمده ورامى العشيرة يصيبه سهمه ومن أمحكه اللجاج أخرجه إلى البغى .

أيها الناس الحلم شرف والصبر ظفر والمعروف كنز والجود سؤدد والجهل سفه والايام دول والدهر غير والمرء منسوب إلى فعله ومأخوذ بعمله فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء وا كرموا الجليس يعمر ناديكم وحابوا الخليط يرغب فى جواركم وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم . وعليكم بمكارم الاخلاق فانها رفعة واياكم والاخلاق الدنية فانها تضع الشرف وتهدم المجد وإن نهنهة الجاهل أهون من حزيرته ورأس العشيرة يحمل أثقالها ومقام الحليم عظة لمن انتفع به

فقالوا رضينا بك أبا نضلة وكانت كنيته وتصالحا

ومما يذكر عن هاشم بن عبد مناف فى المنافرة أن أمية بن عبد شمس لما حسده مكانته فى قريش طلب منافرته فكره ذلك ولكن قريشا أكرهته عليها فتنافرا إلى أحد كهان خزاعة على خمسين ناقة سوداء تنحر بمكة وعلى الجلاء منها عشر سنين فلما نزلوا على الكاهن ابتدرهما بقوله . والقمر الباهر

والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو من طائر وما اهتدى بعلم مسافر من منجد وغائر لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر فقال أمية من انتكاث الزمان أن جعلناك حكما فقال له تنافر رجلا هو أطول منك قامة وأعظم منك هامة وأحسن منك وسامة وأقل منك لآمه وأكثر منك ولدا وأجزل منك صفدا ونفرها شما فأخذ هاشم الابل فنحرها وأطعم وخرج أمية إلى الشام فقضى بها الاجل المضروب. ويذكر المؤرخون أن هذه المنافرة كانت بمثابة التسجيل لما كان من عداوة راسخة بين أمية وهاشم ورثها عنهما بعد الابناء والاحفاد

٣ ـ الخطب والوصايا

منشأ الخطابة . أغراضها . تأثيرها . منزلتها

تفرقت العرب فى باديتها المترامية الاطراف الواسعة الاكناف قبائل متشعبة تتمسك كل منها بعصبيتها ونعرتها وتحرص على عزتها وكرامتها وتنقاد إلى رئيس هو ملاك أمرها وقوام شأنها ترى فيه رمز أنفتها وعنوان مجدها وتختاره من أكرم العناصر فيها وأقدرهم على التفاهم معها حتى يكون قلبها النابض ولسانها الناطق يهيب بهم فى كل حادث ويجمعهم لكل خطب فيكون له كلام ومنهم استماع . ومن ثم كان من ألزم سمات الرئيس وأظهر الصفات فيه مقدرته على القول وتملكه زمام البيان فنشأت الخطابة سليقة فى الرؤساء ونبغ فيهم من مصاقع الخطباء الجم الغفير حتى كان لكل قبيلة خطيب

فالخطابة اذن وليدة حاجة العرب الطبيعية ونظام عيشهم الاجتماعى ولقد رفع من شأنها فوق ذلك كثرة الدواعى اليها وانتشار الامية بينهم حتى كانت وحدها مفزعهم واليها إذ لا كتابة مرجعهم

فبها كانوا يحرضون على القتال وشن الغارات والأخذ بالثأر وبث الحمية في النفوس وتحبيب الموت إلى الجبان فى بيئة تتطلب منهم ذلك كل وقت وآن.

وبها كانوا يدعون إلى السلم كلما اكتووا بنار الحرب فلا يزال خطيبهم يفيض فى أضرار القتال ومنافع السلام حتى ينزع ما فى صدورهم من غل ويستل ما بنفوسهم من حقد فاذا هم قد أخلدوا إلى السكون وعادوا اخوانا وادعين ولو إلى حين

وبها كانوا يتآمرون بالمعروف إذا نضب معينه ويتناهون عن المنكر إذا زخر تياره فيحببون فى الخير ويبغضون فى الشر ويوصون باقتناء المحامد والتخلق بالمكارم . وكثير من خطبائهم كان دأبه العظة والاعتبار وهمه التذكير والانابة ليخلص النفوس من أرجاسها ويطهر القلوب من أدرانها

وبها كان تفاخرهم بالاحساب والانساب وتكاثرهم بالاموال والأولاد وتباهيهم بالمقدرة على الكلام لمجرد الكلام والدلالة على فوقهم فى الفصاحة والبيان فى كثير من المجامع والاسواق

وبها كانوا يؤدون واجب السفارات بين بعضهم وبعض أو بينهم وبين مجاوريهم فى الاشياء العامة من تأمين سبيل أو إجارة تجارة أو تهنئة أو تعزية فلا يزالون يختارون للسفارة أغناهم بيانا وأوضحهم برهانا وأحضرهم بديهة وأقواهم ارتجالا مسوقين فى ذلك بحكم أميتهم وتعذر طرق الوصلة ببلادهم مما لم يدع للكتابة مجالا عندهم

على أن من أغراض الخطابة فوق ماتقدم ماكان فى الاملاك من خطب تلقى لربط أواصر المصاهرة بين العشائر وتحبيب المخطوب اليهم فى المخطوب لهم بذكر فضائل الآخرين وأنهم للاولين أهل وأكفاء

ولما كانت أغراض الخطابة على ماسلف ذات اتصال وثيق بحياة العرب وفى تمكنه السامية من نفوسهم كان الخطباء يحفلون بخطبهم ويقبلون عليها من كل نفوسهم فيتخيرون لها من المعانى أشرفها ومن الالفاظ أفصحها لتكون أشد وقعا على النفوس وأبعد تأثيرا فى القلوب وأيقظ للهمم وأحث على العمل فان الاذن للكلام البليغ أصغى والطبع إلى المعنى الشريف أميل والكلام إذا صب فى قالب من البلاغة محكم الصوغ جذاب الشكل عظم اقبال السامعين على مايرغب فيه الخطيب ان كان يحبب واشتد نفارهم عما يرغب عنه ان كان يحذر ولو كانوا قبل استماعه على غير مايريد وليس ذلك بالمبالغ فيه فان من البيان لسحرا

ثم لم يفت الخطباء أن يتعودا فى خطبهم كل مايفخم من هذا التأثير ويزيد فى شدته كأن يقف الخطيب على شرف من الارض حسن الزى مخصوص العمامة معتمدا على قوسه بيساره وفى يمينه عصاه وأن يكون جهير الصوت حسن الايقاع صائب الاشارة تام الوقار إلى غير ذلك مما يبلغ بالخطابة غايتها من نفوس السامعين وبالقول نهايته فى قلوب الشاهدين

وإذ كان للخطابة على حاجة العرب اليها وقصرها على السادة الأشراف منهم تلك الاغراض فى نبلها وهذا التأثير فى قوته فلا غرو أن كانت منزلتها أشرف منزلة ومكانتها أسمى مكانة وأن كان الخطيب فى كل قبيلة المرجع الذى اليه يرجعون وعنه يصدرون لما أمدته به رياسته وهداه اليه بيانه وهل لذى رياسة ما غنى عن قول ونزوع عن بيان فما بالنا إذا كان فى بداوة ليس فيها ماقد يغنى الحضرى عن الكلام وفيها مايدعوه هو إلى أن يقول ويطيل وهل لغير ذلك كان الرسل عليهم السلام مقاول خطباء ولامرما غير هذا قال جل شأنه عن لسان موسى عليه السلام « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى

ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون »

وكالخطب الوصايا إلا أن الخطب أوسع دائرة وأبعد مدى فهي للمشاهد والمجامع والايام والمواسم والتفاخر والتنافر ومن الوفود في كل مهم لدى الملوك والأمراء والسادة والكبراء بينما الوصايا لاتعدو قوما مخصوصين في أمر مخصوص كأن تصدر من سيد لعشيرته أو أب لبنيه أو امرأة لابنتها وأكثر ماتكون عند الاحساس بدنو أجل أو توقع فرقه. وهذي نماذج للنوعين في كل ماذكر من أغراض

فمن خطب التحريض على القتال والثبات في الميدان خطبة هانيء بن قبيصة الشيباني في قومه بكر يوم ذي قار وقد تقدمت في الايام

ومن خطب الدعوة إلى الصلح والجنوح للسلم خطبة هاشم بن عبد مناف في خزاعة وقريش حين تنافرتا إليه وقد تقدمت في المنافرات وهي بعينها شاهد على خطب التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر

ومن خطب العظة والاعتبار خطبة المأمون الحارثي في نادي قومه وهي كما رواها صاحب الامالي عن جماعة آخرهم أبو عبيدة قال :

قعد المأمون الحارثي في نادي قومه فنظر إلى السماء والنجوم ثم أفكر طويلا ثم قال :

أرعوني أسماعكم وأصغوا إلى قلوبكم يبلغ الوعظ منكم حيث أريد طمح بالاهواء الاشر وران على القلوب الكدر وطخطخ الجهل النظر إن فيما نرى لمعتبرا لمن اعتبر . أرض موضوعة وسماء مرفوعة . وشمس تطلع وتغرب ونجوم تسري فتعزب . وقمر تطلعه النحور وتمحقه أدبار الشهور . وعاجز مثر وحول مكد وشاب مختضر ويفن قد غبره وراحلون لا يؤوبون وموقوفون

لا يفرطون . ومطر يرسل بقدر فيحي البشر ويورق الشجر ويطلع الثمر وينبت الزهر . وماء يتفجر من الصخر الأصم فيصدع المدر عن أفنان الخضر فيحي الأنام ويشبع السوام وينمى الانعام . إن فى ذلك لاوضح الدلائل على المدبر المقدر البارىء المصور . يأيها العقول النافرة والقلوب النائرة أنى تؤفكون وعن أى سبيل تعمهون وفى أى حيرة تهيمون وإلى أى غاية توفضون . لو كشفت الاغطية عن القلوب وتجلت الغشاوة عن العيون لصرح الشك عن اليقين وأفاق من نشوة الجهالة من استولت عليه الضلالة

ومن خطب التفاخر ماتقدم فى المفاخرات لبيوتات العرب ومن طوالها خطبة النعمان بن المنذر عند كسرى وعنده وفود الامم الاخرى وقد فضلهم على العرب ومثلها خطب الوفد الذى بعث اليه عقب ذلك وكلها بالعقد الفريد لابن عبدربه

ومن خطب السفارات خطبة عبد الملك بن هاشم فى وفد قريش إلى سيف ابن ذى يزن باليمن حين ظفر بالحبشة وأتت اليه وفود العرب لتهنئته ومدحه قال :—

ان الله أحلك أيها الملك محلا رفيعا صعبا منيعا شامخا باذخا وأنبتك منبتا طابت أرومته وعزت جرثومته وثبت أصله وبسق فرعه فى أكرم موطن وأطيب معدن . وأنت أبيت اللعن ملك العرب وربيعها الذى يخصب به وأنت أيها الملك رأس العرب الذي اليه تنقاد وعمودها الذي عليه العماد ومعقلها الذى تلجأ اليه العباد . سلفك خير سلف وأنت لنا منهم خير خلف فلن يخمل ذكر من أنت سلفه ولن يهلك من أنت خلفه . ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته أشخصنا اليك الذى أبهجنا لكشف الكرب الذى فدحنا فنحن وفد التهنئة لاوفد المرزئة

ومن خطب الاملاك خطبة أبى طالب بن عبد المطلب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى تزوجه خديجة بنت خويلد رحمة الله عليها وهى من أقصد خطب الجاهلية قال : —

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وجعل لنا بلداحراما وبيتا محجوجا وجعلنا الحكام على الناس . ثم ان محمد بن عبد الله ابن أخى من لايوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجداً ونبلا . وان كان فى المال قل فانما المال ظل زائل وعاريه مسترجعة . وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك وماأحببتم من الصداق فعلى

ومن وصايا السادة لعشائرهم وصاة اكثم بن صيفى التميمى لقومه قال: —

يابنى تميم لايفوتنكم وعظى ان فاتكم الدهر بنفسى . ان بين حيزومى وصدرى لكلاما لاأجد له مواقع إلا اسماعكم ولا مقار إلا قلوبكم فتلقوه بأسماع مصغية وقلوب واعية تحمدوا مغبته . الهوى يقظان والعقل راقد والشهوات مطلقة والحزم معقول والنفس مهملة والروية مقيدة ومن جهة التواني وترك الروية يتلف الحزم ولن يعدم المشاور مرشدا والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل ومن سمع سمع به ومصارع الرجال تحت بروق الطمع ولواعتبرت مواقع المحن ماوجدت إلا مقاتل الكرام وعلى الاعتبار طريق الرشاد ومن سلك الجدد أمن العثار ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ويشغل فكره ويؤرث غيظه ولا تجاوز مضرته نفسه . يابنى تميم الصبر على جرع الحلم أعذب من جناء ثمر الندامة ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم وكلم اللسان أنكى من كلم السنان والكلمة مرهونة مالم تنجم من الفم فاذا نجمت فهى أسد محرب أو نار تلهب ورأى الناصح اللبيب دليل لايجوز . ونفاذ الرأي فى الحرب أجدى من الطعن والضرب

ومنها أيضا وصاة عامر بن الظرب العدوانى الذى تقدمت الاشارة اليه مع أكثم إذ قال له قومه وقد خشوا موته. إنك سيدنا وقائلنا وشريفنا فاجعل لنا شريفا وسيدا وقائلا فقال .

يامعشر عدوان كلفتمونى بغيا ان كنتم شرفتمونى فانى أريتكم ذلك من نفسى فأنى لكم مثلى. افهموا ما أقول لكم .

إن من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له وكان الباطل أولى به وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل ولم يزل الباطل ينفر من الحق ·

يامعشر عدوان — لا تشمتوا بالذلة ولا تفرحوا بالعزة فبكل عيش يعيش الفقير مع الغنى. ومن يُرِ يوما يُرَ به. وأعدوا لكل أمر جوابه. إن مع السفاهة الندامة والعقوبة نكال وفيها ذمامة. ولليد العليا العاقبة. والقود راحة لا عليك ولا لك. واذا شئت وجدت مثلك. إن عليك كما أن لك. وللكثرة الرعب وللصبر الغلبة. ومن طلب شيئا وجده وان لم يجده يوشك أن يقع قريبا منه ·

ومن وصايا الآباء للابناء وصاة ذى الاصبع العدوانى حين احتضر لابنه أسيد قال :-

يا بنى إن أباك قد فنى وهو حى وعاش حى سئم العيش واني موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته فاحفظ عنى . ألن جانبك لقومك يحبوك وتواضع لهم يرفعوك وابسط لهم وجهك يطيعوك ولا تستأثر عليهم بشىء يسودوك وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم واسمح بمالك واحم حريمك وأعزز جارك وأعن من استعان بك وأكرم ضيفك وأسرع النهضة فى الصريخ فان لك أجلا لا يعدوك وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا فبذلك يتم سؤدوك

ومن وصايا النساء لبناتهن ماذكره الميداني عن المفضل الضبي فى المثل «ماوراءك ياعصام» ولن نروى منه إلا محل الاستشهاد قال :

لما أرادوا أن يحملوا ابنة عوف بن محلم الشيباني الى زوجها الحارث بن عمرو ملك كندة قالت لها أمها توصيها : —

أى بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما اليها كنت أغني الناس عنه ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال . أى بنية إنك فارقت الجو الذى منه خرجت وخلفت العش الذي فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا فكوني له أمة يكن لك عبدا وشيكا . يا بنية احملى عنى عشر خصال تكن لك ذخرا وذكرا الصحبة بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة . والتعهد لموقع عينه والتفقد لموضع أنفه فلا تقع عينه منك علي قبيح ولا يشم منك الا أطيب ريح والكحل أحسن الحسن والماء أطيب الطيب المفقود . والتعهد لوقت طعامه والهدو عنه عند منامه فان حرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة . والاحتفاظ ببيته وماله والارعاء على نفسه وحشمه وعياله فان الاحتفاظ بالمال حسن التدبير والارعاء على الحشم والعيال جميل حسن التقدير . ولا تفشى له سرا ولا تعصى له أمرا فانك ان أفشيت سره لم تأمنى غدره وان عصيت أمره أوغرت صدره . ثم اتقى مع ذلك الفرح ان كان ترحا والاكتئاب عنده ان كان فرحا فان الخصلة الأولى من التقصير والثانية من التكدير . وكوني أشد ماتكونين له اعظاما يكن أشد مايكون لك اكراما وأشد ماتكونين له

موافقة يكن أطول ماتكونين له مرافقة . واعلمى أنك لاتصلين إلى ماتحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت والله يخير لك .

هذا وكتب الادب، ملأى بأخبار الخطباء والحكماء والموصين وضاربى الامثال وذوى الاسجاع من الكهنة والعرافين ولا محل هنا للمزيد عما سقناه ففيه الغناء لما أردنا من نماذج على سبيل التمثيل لأنواع النثر وأقسامه فى آن.

الشعر الجاهلى

١ — أولية الشعر عامة ولدى العرب خاصه

ليس للشعر باعتباره تلك المعانى المؤثرة التى تتصل بالشعور وتعبر عن خلجات النفوس وتنساق لهوى الغرائز والميول أولية تعرف فانه بهذا المعنى يكاد يكون مخلوقا مع الانسان منذ أن هبط الى هذا الوجود مجموعة غرائز فطرية يخضع لها فى كل أعماله خضوعا لا يحد منه عقل ولا يقف فى سبيله فكر لان التعقل والتفكر لم يوجدا إلا بعد حقب طال أمدها اكتسب الانسان خلالها من التجارب ماأوجد له عقلا بجوار الغريزة فصارت إرادته مرتكزة عليه بعد أن كانت مسخرة دون تفكير للغرائز الحافزة والميول الدافعة . ولكن ليس مما يسيغه عقل ولا تسمح به سنة أن تكون تلك المعانى قد ظهرت أول ماظهرت فيما نسميه شعرا بالمعنى الاصطلاحى أى فى قوالب محدودة من الأوزان والقوافى فان هذه القوالب فى كل اللغات أثر من آثار حضارتها والحضارة لا يمكن أن تكون إلا بعد قرون طويلة تقطعها اللغة منذ نشأتها الى حيث تظهر بها أمثال هذه الآثار .

فالمعانى الشعرية وجدت حيث وجدت مطلقة الاسلوب من كل قيد وأخذت فى التدوج الى أن بلغت الغاية التى نرى من قيود ثم جهلت هذه الخطوات الاولى كما جهلت سائر أوائل الاشياء . على أن العقل يكاد يجزم فى لغتنا العربية أن أول خطوة خطاها شعرها كانت متمثلة فى الاسجاع وبعدها كان تساوى الفواصل فيها ثم خضوع هذا التساوى شيئا فشيئا لأقيسة التفاعيل وبذلك

تحقق الوزن فى البيت الواحد مع اتحاد الحرف الاخير فى الشطرين كما نراه فى منظومات العلوم والفنون وهذا أهون أنواع الشعر . وتلا هـذه الحالة التقيد بحرف القافية فى الاعجاز مع التحلل منه فى الصـدور وفى خلال ذلك وعلى توالى القرون تنوعت الاوزان وطالت القوافى وبلغ الاقتدار على التقيد مداه حتى وصل الى الاراجيز وهى أصعب أنواع الشعر . ومن هذا يفهم أن الشعر العربى لابد له فى معناه من التأثير المعتمد على الشعور وفى لفظه من التقيد بالوزن والقافية . واذا ماخلا من هذين معاً أو من أحدهما سمى نثراً فحسب أو نثرا شعريا أو نظما لا شعرا . فالشعر على اطلاقه هو ماعنينا وعلى هـذا القصد ذكرنا ماذكرنا آنفا من أن النثر أسبق منه الى الوجود .

ولما كان المعنى الشعرى فطريا تهدى اليه الطبيعة البشرية إذ لابد منه للانسان فى التسرى عن نفسه وقت الشدة والتسلى به حين الوحدة ظهر الشعر على ألسنة الامم جمعاء ولم تختص به أمة دون أخرى ولكنها لم تكن فيه سواء فكانت أكثرهن فيه قولا أصلحها له بيئـة وأوفقها له لغة . ومن ثم كانت العرب فى جاهليتها من أقدر الشعوب عليه إن لم تكن أقدرها جميعا فقد قالته رجالا ونساء شبانا وشيبا سادة وسوادا ولم يعدم أقلهم فيه شأنا الابيات يقدمها فى حاجته أو يعبر بها عن معنى فى نفسه وان لم يك من الملقبين بالشعراء لأن طبيعة العيش البدوي تهدى الى الشعر وتدعو الى الغناء به .

فمن حياة بسيطة ساذجة لا شىء فيها يطغى على الفطرة أو يميت الوجدان بل كل ما فيها ينميهما ويزيد من قوتهما . فالسماء صافية الرقعة متألقة الكواكب والارض منبسطة الأديم لامعة الرمال متصلة بالعائش فيها تمام الاتصال متجلية له بكل ماعليها من حيوان ونبات . الى رحلة طويلة دائمة لا يفارق العربى فيها راحلته فلا يزال يسوقها وهى تقطع المفاوز والقفار بتلك الحركة

المرقصة كأرجوحة الطفل لا تكاد اليد تهزها حتى ينطلق اللسان فيغنيها . كذلك هو انطلق لسانه لراحلته فلم يزل يحدوها بألحان الشعر ويرفع من ورائها عقيرته بأهازيجه . ولقد قالوا إن أول مانشأ من الاوزان الرجز وما الرجز إلا قياس رسمه فى مخيلة العرب سير الابل فى الصحراء ففاض الشعر على ألسنتهم أول مافاض بألفاظ هى وتفاعيل الرجز فى الوقع سواء .

تهيأت للعرب إذن مذ كانت العرب دواعى الشعر بما تهيأ لهم من سلامة فطرة وملاءمة بيئة ثم كنف عيشهم ما كنفه من ضنك ومشقة وتفرد وعزلة فهرعوا اليه يتخذونه لدى الشدائد عونا وفى الوحدة أنيسا حتى كان لحنهم وهجيراهم شأن ذوى الاعمال المتعبة والخلوة الموحشة لا غنى لهم عن الغناء به ولا محيص . ولقد ذلل من مطاوعته لهم حتى صار سلسبيلا جاريا تلك اللغة الذلول ذات الغنى الكبير فى مفرداتها ومرادفاتها والتصرف الاكبر فى أساليبها وتراكيبها فنبغوا فيه نبوغا عدد من أوزانه وأطال فى قوافيه وجعله فى هذين الامرين ذا منزلة لم يدانه فيها سواه ، وأنى لغيره تلك المداناة دون أن تتهيأ لغته فى مفرداتها وأساليبها لما تهيأت له لغة الضاد فى التصرف البعيد البديع الذى مكن لذوى الصناعة اللفظية من الاتيان بأشياء لولاه كانت من المعجزات . وفى مقامات الحريرى من هذا الضرب فنون وألوان ، فمن مقامة تتضمن رسالة إحدى كلماتها معجمة والاخرى مهمله الى مقامة تتضمن أخرى كل كلمة فيها أحد حروفها معجم والآخر مهمل الى مقامة تتضمن رسالة تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه الى مقامة تتضمن عبارات تقرأ طردا وردا فلا يغيرها عكس حروفها الى غير هذا مما ليس له نظير ولا شبيه فى أية لغة أخرى.

وكما كانت العرب فى جاهليتها ذات قدرة على الشعر فائقة وشاملة معا كذلك كانت من أقدم الامم المعروفة به . فأولية الشعر عندها تكاد ترجع الى

أوليتها وهى أمة قديمة العهد ذات صلة بفجر التاريخ. غير أن بدواتها وأميتها حالتا بينها وبين تدوينه بنقش على أثر أو كتب فى كتاب، فلم يك لها حياله إلا تلقيه بالحفظ والادكار فأخذ يطوى بطي الحقب ويذهب بذهاب الحفظة وهيهات للحفظ وحده أن يبقى معه مأثور على تلك القرون الطوال. لذلك كان الضياع حليف الشعر الجاهلى فلم يسلم لنا منه وراء قرنين قبل الهجرة شيء كما لم يسلم منه فى هذين القرنين بالنسبة لما ضاع إلا القليل.

وأول مأثور عرف كان فى قبائل ربيعة بنجد والعراق وبخاصة تغلب وبكر أيام حرب البسوس ومن أقدم شعرائها ويقال إنه أول من قصد القصيد والصواب أول من عرف له القصيد المهلهل وهو عدى بن ربيعة التغلبي أخو كليب الذى هاجت بمقتله بين القبيلتين السالفتين الحرب السابقة فكان لها فى إذكاء الشعر بربيعة الاثر الكبير. ثم تحول الى قيس عيلان وكانت شعوبها تملأ نجدا وأعالى الحجاز. ومن قبائلها عبس وذبيان وبينهما بدأت حرب داحس والغبراء وتناولت معهما الكثير فكان لها من إذكاء الشعر فى قيس ما كان فى ربيعة لحرب البسوس. ومن قيس انتقل الى تميم وتميم مسعر الحروب فاستقر فيها وكانت أول نشوئها فى تهامة ثم نزحت الى شرقى نجد وبادية العراق. ولم يظهر فى مدركة إلا فى بطون سكنت البادية منها كهذيل وأسد وبعض كنانة وقريش وبهذا غلب الشعر على أكثر أهل البادية من مضر وربيعة كما غلب على من ساكنهم بها من نازحي قبائل اليمن القدماء كطيئ وكندة وغيرها مما تقدم بيانه فى القبائل والبطون، أما الحواضر فكانت قليلة فى ذاتها وكذلك كانت قليلة الشعراء.

واذا قلنا إن الشعر كان أقدم مما أثر منه بكثير فانا نستند فى قولنا هذا الى العقل والي المأثور، فأما الي العقل فلأنه يأبى على الشعر الاباء كله أن يظهر

طفرة بذلك المظهر الذى كان عليه أيام حرب البسوس ، وما قصائد مهلهل فى وصف تلك الحرب وفى رثاء كليب أخيه إلا نتيجة حقب طويلة درج فيها الشعر حتى تم صقاله وتعددت أوزانه واستطالت قوافيه ولا بد أن تكون تلك القصائد مسبوقة بأمثالها فى العهد القريب وبشبيهات لها فى البعيد ، وهكذا القهقرى الى عهود سحيقة كان الشعر فيها فى صور المقطعات الصغار . وأما الى المأثور فلأنا نرى فى أقدم الشعراء المروى عنهم من يقول وهو امرؤ القيس

عوجا على الطلل المحيل لعلنا   نبكى الديار كما بكى ابن حذام

وابن حذام أقدم من امرىء القيس ولم يصل الينا من شعره شيء ولا بد أن يكون قد وقف على الاطلال وبكى الديار كما يريد أن يقف ويبكى امرؤ القيس ثم لا بد أن تكون له قصائد افتتحها بالوقوف والبكاء وصرف القول فيها بعد الى غير ذلك من الاغراض بهذا كان يدين الشعراء كامرىء القيس للقدماء ألا ترى الى عنترة يفتتح معلقته فيقول :

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرف الدار بعد توهم

فنحن اذا انحزنا فى دراسة الشعر الجاهلى الى القرنين السابقين للاسلام نفعل ذلك مضطرين لانقطاع الرواية الصحيحة عما قبل هذا التاريخ لان ماروى منه أقرب الى الوضع والاختلاق ، ومن العبث التعرض له بكلام فقد أفرط القصاصون فى التوغل بالشعر الى القديم حتى أوصلوه الى العرب البائدة فنسبوا اليها منه الكثير فيما ذكروه عنها من أساطير ناسين أنهم رووه بلغة مضر قبيل الاسلام ومحال أن تتحد ولغة عاد ، على أن ذلك ليس بالغريب عليهم وقد نسبوا الشعر الى آدم وأولاده والى الجن والملائكة والشياطين .

تلك نبعة الشعر عامة ولدى العرب خاصة وإنا لسائقو القول بعدها على الشعر الجاهلى من حيث طبيعته وفنونه ، تسجيله كثيرا من أحوال العرب ، تأثيره ومنزلة رجاله ، طبقات الشعراء ومنزلة اصحاب المعلقات فيهم مع السبب فى تسميتها بهذا الاسم ثم منزلة المعلقات نفسها منه إن شاء الله .

٢ـــ طبيعة الشعر الجاهلى وفنونه

نرانا مضطرين قبل التكلم فى طبيعة الشعر الجاهلى أن نسوق القول عاما فى طبائع الشعر القديم كلة حتى يمكن أن نرجع الشعر المذكور الى الطبيعة التى تلائمه والتى اليها ينتمى

فان من الشعر ماهو قصصى ينصرف الى القصص فيذكر الحروب والابطال ولكنه لايقتصر فى ذكرها عليهما بل يمزج بهما مناداة الآلهة واستيحاءها فهو شعر اجتماعى تفنى فيه شخصية الشاعر الى حيث لايراها الانسان ثم هو فى لفظه طويل بالغ فى الطول تصل القصيدة الواحدة منه الآلاف من الابيات دون أن تتقيد بلون واحد من الوزن والتقفية ، وكثيرا ماتعتمد فى انشادها على الموسيقى · وهذا النوع من الشعر يلائم كل أمة فى فطرتها الاولى اذا تضامت برابطة اجتماعية تصل بين أفرادها فى الدفاع والاغارة وأخرى دينية توحد بينهم فى العقيدة ولكنها تعدد من آلهتهم ومعبوداتهم كأمة اليونان فى القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد .

ومنه ماهو تمثيلى يعتمد على الحوار المصحوب بالحركة والعمل الصادر عن كثير من الاشخاص دون اشتمال على أمثال سأل وأجاب أو قال وقلت فترى المتحاورين فيه يتحدثون وهم يغدون ويروحون ويأتون من الاعمال مايستلزمه هذا الحوار معتمدين فى أقوالهم على ماهنالك من غناء وموسيقى ورقص وهو فى موضوعه أوسع دائرة من القصصى لانه يتناول القصة وغيرها ثم القصة فيه غير قاصرة على الابطال والحروب ولا مقيدة باستيحاء الآلهة وخطابها ولذلك لم يظهر فى أمة قديمة إلا نتيجة لرقى عقلى كبير وحياة ديمقراطية صحيحة كأمة اليونان منذ القرن الخامس قبل الميلاد .

ومنه ما هو غنائي يخرج عن الدائرة الاجتماعية للقصص والتمثيل الى شخصية الفرد أولا وقبل كل شيء فلا يزال يصور نفسية الشخص وما يتصل بها من وجدان وميل ولا يفتأ صاحبه يغني نفسه بحبه وبغضه ولذته وألمه . وهو نتيجة لرقي الشخصية الفردية وتحررها من قيود الاجتماع المسيطرة من غير رأي ومن شوائب العقيدة المشركة للآلهة في كل عمل . ولذلك كان المرحلة الوسطى لاخويه في الامم التي وجدت بها المراحل الثلاث كأمة اليونان أيضا في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد .

فطبائع الشعر ثلاثة ونحن اذا عرضنا لاسبابها وعيزاتها نطبقها على العرب في جاهليتها لا نجدها تهيأت إلا للشعر الغنائي فحسب . نعم كان لها ذكر قوي لابطالها ووصف معرف بحروبها ولكنه لم ينهض أن يسمى شعرا قصصيا لانها قالته غير مطيلة فيه دون أن تنسى شخصيتها أو تستوحي آلهتها . كما كان لها حوار يظهر في القصيدة بين عاشقين أو متخاصمين ولكنه لم ينهض كذلك أن يسمى تمثيليا ، لان الحوار فيه على ضيق دائرته وقلته لم يتجرد من أمثال قلت وقال ولم يصحب من المتحاورين بالحركة والعمل كما لم يعتمد على ما اعتمد عليه التمثيلي من رقص وموسيقى وغناء .

واذن الشعر العربي غناء كله ولكنه في جاهليته عن طبيعة وبيئة وفي إسلامه عن محاكاة وتقليد وليس يضير العرب من ذلك ضير لان شاعرية الامة لاتقاس بأنواع الشعر بل بالدرجة التي بلغت إنتاجا وقدرة في النوع الذي تهيأت له والامة العربية قد بلغت من الشعر الغنائي مبلغا لم تشاركها فيه أمة أخرى فقد قالته في كل عصورها فجاء في عمومه معبرا عن الجمال الفني المطلق الذي تنشده الانسانية جميعا ليكون صلة بين شعوبها وأجناسها على اختلاف بيئتها وعصورها كما جاء في خصوصه مرءاة تمثل أصدق تمثيل شخصية الشعراء

وحالة البيئات وحياة الافراد والجماعات حتى انه ليعد من أصدق مصادر التاريخ على اختلاف الامكنة والعصور وحسبه أن أدى رسالته بقوة فى هاتين الناحيتين وليس بعد ذلك منال .

هذه طبيعة الشعر الجاهلى فاذا قلنا طبيعته وفنونه فانما نقصد الى الفنون الداخلة فى هذه الطبيعة الغنائية من نسيب وفخر ورثاء ومدح وهجاء ووصف لا الى أى نوع من النوعين الآخرين وهما القصصى والتمثيلى على أن له أبوابا أخرى ولكن هذه الابواب الستة أهم فنونه إذ هى الاصيلة فيه واليها يكاد يرجع غيرها من وعيد وانذار، استعطاف واعتذار، اقتضاء واستنجاز، وملامة وعتاب الى غير هذه مما يعده الادباء . أما الحكم والامثال فلم تك بالكثيرة فى الشعر الجاهلى كما لم تك تأتي وحدها قصدا بل عفوا وفى ثنايا غيرها . وهذه كلمة عن كل فن من الفنون الستة متبوعة بنماذج له .

١ — النسيب

ويرادفه التشبيب والتغزل وكلها راجعة الى المرأة فى وصفها حساً ومعنى واظهار الميل اليها والكلف بحبها مع ما يتبع هذا من التألم لفراقها والتشوق الى للقائها الى غير ذلك مما يدل على شدة الصبابة وفرط الوجد وتصورها فى كل ذي صلة بها أو مشابهة لها من الديار والآثار والنبات والحيوان والرياح والبروق . وقد شغل النسيب فى الجاهلية مكانا علياً من الشعر ولا يبعد أن يكون أقدم فنونه لقدم علاقة الرجل بالمرأة ولان حياة البداوة تجعل مشاركتها له مجسمة بارزة ، هذا الى ما للحل والارتحال الدائبين بتقلب الفصول والايام من خلق أسباب الهوي والهيام لما فيهما من قرب وفراق وتواصل وبعاد . ولذا كثر فى العرب العشاق المتيمون أمثال المرقش الاكبر من بكر وائل

واسمه عوف بن سعد وعبد الله بن العجلان من نهد من قضاعة ومالك بن الصمصامة من بنى جعدة ومسافر بن أبي عمرو من قريش ثم عروة بن حزام العذرى وقد أدرك الاسلام فهؤلاء ولهم أمثال وأشباه عاشوا للمرأة وفى المرأة ماتوا وخلص لها شعرهم كما خلص لها حبهم ثم لم تعدم من غيرهم الكثير من الاشعار ان لم يكن قصدا وبالذات ففى مطالع القصائد وكثيرا ما كانت تراجح الغرض منها أو تزيد ويحسن أن نختص تلك المطالع باسم التشبيب وهذا فرق ما بينه وبين التغزل والنسيب أما الفرق بين هذين فعلى تعذر حده يمكن أن يقال إن التغزل ما عمد فيه الشاعر الى وصف المرأة مدفوعا الى ذلك بعقيدة أو مسوقا فيه بصناعة والنسيب ما توجه فيه الى ذكر الصبابة والوجد وألم الهوى والفراق صادرا فى ذلك عن وجدان وشعور لا يكونان الا فى المحبين المغرمين ومن هنا كانت كلمة النسيب أنسب الكلمات الثلاث لاطلاقها على هذا الفن من الشعر كما اخترناه .

نماذجه

قال المرقش الاكبر وهو من الشعراء المتيمين

سرى ليلا خيال من سليمى　　فأرقنى وأصحابي هجود
فبت أدير أمرى كل حال　　واذكر أهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرفى لنار　　يشب لها بذى الارطى وقود(١)
حواليها مهاً بيض التراقى　　وآرام وغزلان رقود
نواعم لا تعالج بؤس عيش　　أوانس لا تروح ولا ترود

---

(١) ذو الارطى مكان والارطى شجر

يرحن معا بطاء المشى بدءا ... عليهن المجاسد والبرود (١)
سكن ببلدة وسكنت أخرى ... وقطعت المواثق والعهود
فما بالى أفى ويخان عهدى ... وما بالى أصاد ولا أصيد

وقال فى ابنة عمه أسماء وهى التى مات بحبها

أغالبك القلب اللجوج صبابة ... وشوقا إلى اسماء أم انت غالبه
يهيم ولا يعيا بأسماء قلبه ... كذاك الهوى أمراره وعواقبه (٢)
أيلحى امرؤ فى حب أسماء قد نأى ... بغم من الواشين وازور جانبه
وأسماء هم النفس إن كنت عالما ... وبادى أحاديث الفؤاد وغائبه
إذا ذكرتها النفس ظلت كأننى ... يزعزعنى قفقاف ورد وصالبه (٣)

وقال عروة بن حزام العذرى وهو من المخضرمين من قصيدة طويلة فى ابنة عمه عفراء

على كبدى من حب عفراء قرحة ... وعيناى من وجد بها تكفان
فعفراء أرجى الناس عندى مودة ... وعفراء عنى المعرض المتواني
فياليت كل اثنين بينهما هوى ... من الناس والانعام يلتقيان
فيقضى حبيب من حبيب لبانة ... ويرعاهما ربى فلا يريان
هوى ناقتى خلفى وقدامي الهوى ... واني واياها لمختلفان
يقول لى الاصحاب إذ يعذلوننى ... أشوق عراقى وأنت يمانى
تحملت من عفراء ماليس لى به ... ولا للجبال الراسيات يدان

---

(١) جمع مجسد كمبرد الثوب يلى الجسد وجمع برد كقفل كساء مخطط أو كسية يلتحف بها واحدتها بهاء (٢) جمع مرضد الحلو (٣) الورد بكسر الواو الحمى أو قفقافها ذو الرعدة منها يذهب ويجىء فاذا استمر فهو الصالب

كأن قطاة علقت بجناحها | على كبدى من شدة الخفقان
جعلت لعراف اليمامة حكمه | وعراف نجد إن هما شفيانى(١)
فقالا نعم نشفى من الداء كله | وقاما مع العواد يبتدران
فما تركا من رقية يعلمانها | ولا سلوة الا وقد سقياني
وما شفيا الداء الذى بي كله | ولا ذخرا نصحا ولا ألوانى(٢)
فقالا شفاك الله والله مالنا | بما ضمنت منك الضلوع يدان

٢ — الفخر

هو تمدح الشاعر بنفسه وقومه وذكر مآثرهم ومفاخرهم وأكثر ما تناول الفخر تناول الشجاعة والنجدة والبأس والقوة وإجارة الجار ومنع الحريم وإكرام الضيف وإيواء الطارقين وهى خير ما كانت تقدس العرب من صفات وأكثر ما كان يظهر فى حياتهم ويتطلبه عيشهم . وأنسب ما كان يقع الفخر كان يقع من السادة الاشراف والابطال الفرسان ومن جرى مجراهم من الصعاليك المغيرين فمن السادة زهير بن جناب الكلبي من قضاعة والحصين بن الحمام من قيس والمهلهل ابن ربيعة وعمرو بن كلثوم من تغلب والأفوه الاودى من مذحج وعبد يغوث من كهلان وعامر بن الطفيل من قيس وأبو قيس بن الأسلت من الأوس وقيس بن عاصم من تميم وقد أدرك الاسلام ومن الفرسان علقمة الفحل من تميم وعنترة العبسى وحاتم الطائى وسلامة بن جندل التميمى وقيس بن الخطيم الاوسى والاغلب العجلى وعمرو بن معديكرب الزبيدى ثم أبو محجن الثقفى وزيد الخيل الطائى وقد أدركا الاسلام ومن الصعاليك المغاوير عروة بن الورد العبسى وتأبط شرا القيسى والسليك بن السلكة التميمى

---

(١) الاول رباح بن عجلة والثانى الابلق السعدى (٢) ألى قصر من باب نصر

نماذجه

قال عمرو بن الاطنابة أحد بنى الخزرج يفتخر بقومه وهو ممن ملك الحجاز فى الجاهلية(١)

انى من القوم الذين اذا انتدوا   بدءوا بحق الله ثم النائل (٢)
المانعين من الخنا جاراتهم   والحاشدين على طعام النازل (٣)
والخالطين فقيرهم بغنيهم   والباذلين عطاءهم للسائل
والضاربين الكبش يبرق بيضه   ضرب المهجهج عن حياض الآبل(٤)
والقاتلين لدى الوغى أقرانهم   إن المنية من وراء الوائل (٥)
والقائلين فلا يعاب كلامهم   يوم المقامة بالقضاء الفاصل
خزر عيونهم إلى أعدائهم   يمشون مشى الأسد تحت الوابل
ليسوا بأنكاس ولا ميل إذا   ما الحرب شبت أشعلوا بالشاعل(٦)

وقال حصين بن الحمام المرى فى الصبر

ولما رأينا الصبر قد حيل دونه   وأن كان يوم ذا كواكب مظلما
صبرنا وكان الصبر منا سجية   بأسيافنا يقطعن كفا ومعصما
نفلق هاما من رجال أعزة   علينا وهم كانوا أعق وأظلما
ولما رأيت الود ليس بنافعى   عمدت إلى الامر الذي كان أحزما
فلست بمبتاع الحياة بذلة   ولا مرتق من خشية الموت سلما

وقال حاتم الطائى فى الكرم وما اتصف به من مكارم الاخلاق

فانى لاآلو بمالى صنيعة   فأوله زاد وآخره ذخر

(١) الاطنابة المظلة وهى أمه (٢) انتدوا اجتمعوا (٣) الخنا الفحش (٤) الزاجر الابل يقول هج هج (٥) الوائل طالب النجاة (٦) جمع نكس كقرد الضعيف ، جمع أميل الاعزل

يفك به العاني ويؤكل طيبا ... وما إن تعريه القداح ولا الخمر (١)
ولا أظلم ابن العم ان كان اخوتي ... شهودا وقد أودى باخوته الدهر
غنينا زمانا بالتصعلك والغنى ... وكلا سقاناه بكأسيهما العصر (٢)
فما زادنا بأوا على ذى قرابة ... غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر (٣)
وماضر جارا يا ابنة العم فاعلمى ... يجاورني ألا يكون له ستر
بعينى عن جارات قومي غفلة ... وفى السمع منى عن حديثهم وقر

وقال عتيبة بن بجير المازني من بنى الحارث بن كعب فى ايواء الطارق

ومستنبح بات الصدى يستتيهه ... إلى كل صوت فهو فى الرحل جانح (٤)
فقلت لاهلى مابغام مطية ... وسار أضافته الكلاب النوابح (٥)
فقالوا غريب طارق طوحت به ... متون الفيافى والخطوب الطوارح
فقمت ولم أجثم مكانى ولم تقم ... مع النفس علات البخيل الفواضح
وناديت شبلا فاستجاب وربما ... ضمنا قري عشر لمن لا نصافح
فقام أبو ضيف كريم كأنه ... وقد جد من فرط الفكاهة مازح
إلى جذم مال قد نهكنا سوامه ... وأعراضنا فيه بواق صحائح
جعلناه دون الذم حتى كأنه ... اذا عد مال المكثرين المنائح (٦)
لنا حمد أرباب المئين ولا يرى ... الى بيتنا مال مع الليل رائح

ومن أحسن ماقيل فى الصعلكة قول عروة بن الورد العبسى المعروف بعروة الصعاليك

لحا الله صعلوكا اذا جن ليله ... مصافى المشاش آلفا كل مجزر (٧)

---

(١) العانى الاسير (٢) غنينا أقمنا (٣) البأو التكبر (٤) الجانح المائل
(٥) البغام صوت فى حنين (٦) المنائح جمع منيحة وهى الناقة أو الشاة تدفع إلى الجار ينتفع بلبنها مادام بها لبن (٧) المشاش بضم الميم رأس العظم ومصافيه آخذه كله

يعد الغنى من نفسه كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر
ينـام ثقيلا ثم يصبح قاعدا يحت الحصى عن جنبه المتعفر (١)
يعين نساء الحى ما يستعنه فيضحى طليحا كالبعير المحسر (٢)
ولكن صعلوكا صفيحة وجهه كضوء سراج القابس المتنور
مطلا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر (٣)
وان بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوف أهل الغائب المتنظر
فذلك إن يلق المنية يلقهـا حميدا وإن يستغن يوما فأجدر
يريح على الليل أضـياف ماجد كريم ومـالى سارحا مال مقتر

٣ — الرثاء

هو بكاء الميت وتعديد محاسنه وصفاته فى ثوب من التفجع والحسرة والتلهف والاسى مع استعظام المصيبة واستشعار الجزع إن كان الميت من ذوى الرياسة والاقدار وقد كان من عادة القدماء فيه أن يضربوا الامثال بمن سلف من الانبياء والملوك والامراء والعظماء وبما هلك من الوعول المعتصمة بقنن الجبال والاسود الخادرة فى ثنايا الغياض وحمر الوحش الضاربة فى مجاهل القفار ثم بالنسور والحيات ذات البأس القوى والعمر المديد وأن يخلوه من التشبيب الذى اعتادوا أن يفتتحوا به القصيد فى سائر الفنون ماعداه وهو فى الجاهلية ذو شأن كبير لما كان بها من حروب ذات بال لا تفتأ تغتال الشجعان وتلتهم الابطال وقد شاركت النساء فيه الرجال أكثر مما شاركنهم فى سائر الانواع لانهن أشجى قلوبا وأشد جزعا لما ركب فى طباعهن من رقة العاطفة وضعف الاحتمال ولعل أول من أكثر فيه وأطال المهلهل فى رثائه لكليب أخيه ومن مشهورات المراثى

(١) يحت يفرك (٢) الطليح المعي والمحسر ساقط الوبر من الاعياء
(٣) المنيح القدح لا نصيب له

من النساء قصائد الخنساء فى أخويها معاوية وصخر ولا سيما الاخير على أن هذا الباب قد عم وفاض حتى لم يختص به شعراء كما هى الحال فى غيره من الابواب لان الموت شامل والمصيبة على تحريك النفوس بالبكاء ذات قوة واقتدار .

نماذجه

من أقدم المراثي وأجودها ما كان من مهلهل فى أخيه كليب ومن أدلها على استفظاع المصيبة قوله

كليب لاخير فى الدنيا ومن فيها   اذ أنت خليتها فيمن يخليها
كليب أى فتى عز ومكرمة   تحت السفاسف إذ يعلوك سافيها (١)
نعى النعاة كليبا لى فقلت لهم   مالت بنا الارض أو زالت رواسيها
الحزم والعزم كانا من صنيعته   ما كل آلائه ياقوم أحصيها (٢)
القائد الخيل تردى فى أعنتها   زهوا إذا الخيل لجت فى تعاديها (٣)
من خيل تغلب ما تلقى أسنتها   الا وقد خضبوها من أعاديها
يهزهزون من الخطى مدمجة   كمتا أنابيبها زرقا خواليها
تروى الرماح بأيدينا فنوردها   بيضا ونصدرها حمرا اعاليها
ليت السماء على من تحتها وقعت   وانشقت الارض فانجابت بمن فيها
لاأصلح الله منا من يصالحكم   ما لاحت الشمس فى اعلى مجاريها

ومن جيد الرثاء مراثي الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمي فى أخويها معاوية وصخر فمن مراثيها فى معاوية قولها

---

(١) السفاسف جمع سفسف وهو التراب تسفيه الرياح (٢) جمع ألو كدلو العطيه
(٣) تردى كترمى ترجم الارض بحوافرها

أريقى من دموعك واستفيقى   وصبرا ان أطقت ولن تطيقى
وقولى إن خير بنى سليم   وفارسها بصحراء العقيق
ألا هل ترجعن لنا الليالى   وأيام لنا بلوي الشقيق
وإذ نحن الفوارس كل يوم   إذا حضروا وفتيان الحقوق
وإذ فينا معاوية بن عمرو   على أدماء كالجمل الفنيق (٢)
فبكيه فقد أودى حميدا   أمين الرأى محمود الصديق
فلا والله لاتسلاك نفسى   لفاحشة أتيت ولا عقوق
ولكنى رأيت الصبر خيرا   من النعلين والرأس الحليق (٣)

ومنها فى صخر قولها

أعينى جودا ولا تجمدا   ألا تبكيان لصخر الندي
ألا تبكيان الجرىء الجميل ألا تبكيان الفتى السيدا
طويل النجاد رفيع العماد ساد عشيرته أمردا
إذا القوم مدوا بأيديهم   إلى المجد مد اليه يدا
فنال الذى فوق أيديهم   من المجد ثم مضى مصعدا
يكلفه القوم ماعا لهم   وان كان أصغرهم مولدا
ترى الحمد يهوى إلى بيته   يري أفضل الكسب أن يحمدا
وإن ذكر المجد ألفيته   تأزر بالمجد ثم ارتدى

وقال أبو ذؤيب الهذلى وتتابع له بنون قيل ثمانية وقيل عشرة وقيل هلكوا بالطاعون والصواب التتابع

( ) كنت حر فى قنوء (٢) الفنيق الضخم (٣) كان من عادة النساء حلق الرأس وتعليق النعلين حزنا .

أمن المنون وريبها تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع
قالت أميمه ما لجسمك شاحبا ... منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع(١)
أم ما لجسمك لا يلائم مضجعا ... إلا أقض عليك ذاك المضجع
فأجبتها أما لجسمي أنه ... اودى بنى من البلاد فودعوا
اودى بنى فأعقبونى حسرة ... بعد الرقاد وعبرة ما تقلع
سبقوا هوى واعتقوا لهواهم ... فتخرموا ولكل جنب مصرع
فغبرت بعدهم بعيش ناصب ... وإخال أنى لا حق مستتبع (٢)
ولقد صرحت بأن ادافع عنهم ... وإذ المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع
فالعين بعدهم كأن جفونها ... سملت بشوك فهى عور تدمع
وتجلدى للشامتين أريهم ... أنى لريب الدهر لا أتضعضع
حتى كأنى للحوادث مروة ... بصفا المشقر كل يوم تقرع (٤)
لابد من تلف مقيم فانتظر ... أبأرض قومك أم بأخرى المضجع
ولقد أرى أن البكاء سفاهة ... ولسوف يولع بالبكا من يفجع
وليأتيك عليك يوم مرة ... يبكى عليك مقنعا لا تسمع
والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع
كم من جميعي الشمل ملتئمي الهوى ... كانوا بعيش ناعم فتصدعوا

---

(١) اهملت نفسك ولبست المبتذل من الثياب (٢) غبرت بقيت ومضيت فهو من الاضداد (٣) سملت فقئت (٤) المروة حجر أبيض براق والصفا واحدته صفاة وهى الحجر الصلد الضخم والمشقر الجبل تضرب حجارته إلى الشقرة .

فلئن بهم فجمع الزمان وريبه   إني بأهل مودتى لفجع

وهى طويله ولكنه بعد هذا أخذ يضرب الامثال بما لم يتركه الموت من أنواع الوحوش ذات القوة والاعتصام

٤ — المدح

وطريقة التنويه بفضائل الممدوح والتعريف بصفاته اشادة بذكره ورفعا لشأنه سيان فى ذلك وصفه على سبيل العموم والاجمال بأمهات الفضائل كالشجاعة والعفة والعدل والعقل أو تخصيصه على سبيل التفصيل بما هو أشبه وله أميز كالاقدام والرأى فى القائد والكرم والمساواة فى السيد إلى غير ذلك من الصفات النفسية اللائقة التى ليس للمادح أن يتجوزها إلى غيرها من الجسمية كالجمال أو العرضية كالغنى الا معها وقاصدا . على هذا كان مدح العرب فى جاهليتهم ثم إن ماركب فى نفوسهم من عزة وإنفة وآباء وكرامة جعلهم يضيقون دائرة المدح فلم يتعدوا فيه لذاتهم وذوى الرياسة من عشائرهم غير أن السؤال بالمدائح وطلب الاستجداد بالشعر لم يلبث أن ظهر فيهم آخر عهدهم فكان منهم من تكسب بمدحه فى ترفع كزهير أو تنزل كالاعشى أو بين كالنابغة ولكن قلة هؤلاء ولو أنهم شهروا وبعدوصيتهم لم تخرج بالمدح فى جملته عما رسمنا نماذجه .

قال المسيب بن علس وهو من معاصرى طرفة يمدح مالك بن سلمة الخير القشيري

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم   ولذى الرقيبة مالك فضل
كفاه مخلفة ومتلفة   وعطاؤه متخرق جزل (١)
يهب الجياد كأنها عسب   جرد أطار نسيلها البقل (٢)

(١) متخرق نافذ وجزل عظيم (٢) جمع عسيب الجريدة لا خوص فيها ونسيل الخيل شعرها والبقل يطيره من الشبع به

والضامرات كأنها بقر تقرو دكادك بينها الرمل (١)
والدرهم كالعيدان آزرها وسط الاشام مكمم جعل (٢)
وإذا الشمال حدب قلائصها رتكا فليس لمالك مسئل (٣)
للضيف والجار الغريب ولا طفل التريك كأنه رأل (٤)
ولقد تناولنى بنائله فأصابنى من ماله سجل (٥)
متبعج التيار ذو حدب مغرورب تياره يعلو (٦)
فلأشكرن فضول نعمته حتى أموت وفضله فضل

ولزهير فى هرم بن سنان المروى وبيته مدائح سارت بها الامثال ومن ذلك قوله

إذا السنة الحمراء بالناس أجحفت ونال كرام المال فى الجحرة الاكل (٧)
رأيت ذوى الحاجات عند بيوتهم قطينا لهم حتى إذا نبت البقل (٨)
هنالك إن يستخبلوا المال يخبلوا وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا (٩)
وفيهم مقامات حسان وجوهها وأندية ينتابها القول والفعل
وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل
وإن قام فيهم قائم قال قاعد رشدت فلا غرم عليك ولا خذل
على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل

(١) تقرو تتبع والدكادك المرتفعات جمع دكدك (٢) النخل الصغير واحدته أشاءة والمكمم ذو الاكمام والجعل الكثير (٣) الرتك تقارب الخطا (٤) الرأل ولد النعام والتريك المتروك (٥) السجل الدلو العظيمة (٦) متبعج التيار منفرجة والحدب الارتفاع ومغرورب متماد لا ينقطع سيله (٧) الجحرة كنبقة السنة الشديدة المجدبة (٨) جمع قاطن المقيم (٩) إن يستقرضوه يقرضوه ، ان ييسروا يلعبوا الميسر

فما كان من خير أتوه فانما توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا فى منابتها النخل(١)

وقال الاعشى يمدح الاسود بن المنذر أخا النعمان من قصيدة طويلة والخطاف للناقة

لاتشتكى الى وانتجعى الاسـ ود أهل الندى وأهل الفعال
فرع نبع يهتز فى غضن المجـ د غزير الندى شديد المحال(٢)
عنده البر والتقى وأسا الصد ع وحمل للمعضلات الثقال
وصلاة الارحام قد علم النا س وفك الاسرى من الاغلال
وهوان النفس الكريمة للذكـ ر إذا ما التقت صدور العوالى
أريحى صلت يظل له القو م ركودا قيامهم للهلال
ان يعاقب يكن غراما وان يعـ ط جزيلا فانه لا يبالى

ومن مدائح النابغة للنعمان وفيها اعتذار واستعطاف

أتاني أبيت اللعن أنك لمتنى وتلك التى اهتم منها وأنصب
فبت كأن العائدات فرشن لى هراسا به يعلى فراشى ويقشب(٣)
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عنى وشاية لمبلغك الواشى أغش وأكذب
ولكننى كنت امرأ لى جانب من الارض فيه مستردا ومذهب
ملوك واخوان إذا ما أتيتهم أحكم فى أموالهم وأقرب
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا
فلا تتركنى بالوعيد كأننى إلى الناس مطلى به القار أجرب

(١) الخطى شجر الرماح ووشيجه (٢) الغضن الثنى (٣) الهراس الشوك ويقشب يخلط

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
فانك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب
فان أك مظلوما فبعد ظلمته وان تك ذا عتبى فمثلك يعتب

٥ — الهجاء

ويكون على عكس المدح بتجريد المهجو من الفضائل والصفات المرغبة كما يكون بوصمه بالرذائل الشائنة والاوصاف المنفردة وأشده ماوقع بالموازنة والتفضيل . ولم يتجاوز هجاء الجاهليين القبائل إلى الافراد ولا العف من القول إلى الافذاع إلا حيث صار الشعر آلة للتكسب عند بعض الشعراء وأصبح من الحتم عليهم أن يهجوا ليخيفوا أو ينتقموا وأن يخرجوا فى هجوهم من القبائل إلى الاشخاص متهكين بأقوالهم سياج العفة والاعتدال ولعل أول من عرف بذلك الاعشى ثم جاء بعده الحطيئة من المخضرمين فأفرط وزاد حتى انه لم يعف على هجو نفسه بما لا يرضى أن يهجوه به انسان وكذلك فعل مع أمه وأبيه غير أن ذلك لم يدنس العصر الجاهلى كله لقصره كما تقدم على آحاد

نماذجه

قال بشر بن أبى خازم الاسدى يهجو أوس بن حارثة لام الطائى

ألا أبلغ بنى لأم رسولا فبئس محل راحة الغريب
إذا عقدوا لجار أخفروه كما غر الرشاء من الذنوب (١)
وما أوس ولو سودتموه بمخشى العرام ولا أريب (٢)
أتوعدنى بقومك يا بن سعدى وذلك من ملمات الخطوب

---

(١) الرشاء حبل الذنوب وهي الدلو (٢) العرام كغرام الحدة والشدة والكثرة

وحولى من بنى أسد عديد مبن بين شبان وشيب (١)
هم ضربوا قوانس خيل حجر بجنب الرده فى يوم عصيب (٢)
وهم تركوا عتيبة فى مكر بطعنة لا ألفولا هيوب (٣)
وهم تركوا غداة بنى نمير شريحا بين ضبعان وذيب (٤)
وهم وردوا الجفار على تميم بكل سميدع بطل نجيب (٥)
وأفلت حاجب تحت العوالى على مثل المولعة الطلوب (٦)
وحى بن كلاب قد شجرنا بأرماح كاشطان القليب (٧)
اذا ما شمرت حرب سمونا سمو البزل فى العطن الرحيب (٨)

— وعلى هذا العز الوطيد لبنى أسد يقول عبيد بن الابرص الاسدى لامرىء القيس بعد قتل قومه لابيه يهجوه فى شعر بالغ من الاستخفاف به وتهديده

يا ذا المخوفنا بقتـ ـل أبيه اذلالا وحينا
أزعمت أنك قد قتلـ ـت سراتنا كذبا ومينا
لوما على حجر بن أم م قطام تبكى لا علينا
إنا إذا عض الثقا ف برأس صعدتنا لوينا (٩)

---

(١) المبن المقيم (٢) القوانس أعالى الرءوس وحجر والد امرىء القيس (٣) عتيبة بن الحارث طعنه ذؤاب الاسدى والالف البطىء والهيوب الرعديد (٤) شريح يظهر أنه من سادات نمير (٥) الجفار ما لتميم (٦) حاجب بن زرارة والمولعة العقاب والطلوب الشديدة الطلب للصيد (٧) شجرنا دفعنا وفرقنا والقليب البئر والاشطان حبالها واحدها شطن (٨) جمع بازل وهو من بلغ التاسعة من الابل (٩) الثقاف خشبة تقوم بها الرماح والصعدة القناة

نحمى حقيقتنـا وبعـ ض القوم يسقط بين بينا
هلا سألت جموع كـ ندة إذ توالو أين اينا
أيام نضرب هامهم ببواتر حتى انحنينا
وجموع غسان الملو ك أتينهم وقد انطوينا (١)
لحقا أياطلهن قـد عالجن أسفارا وأينا (٢)
ولقد صقلن هوازنا بنو أهل حتى ارتوينا (٣)
نعليهم تحت الضبا ب المشرفى إذا اعتزينا
نحن الالى فاجمع جمو عك ثم وجههم الينا
وأعـلم بأن جيادنا آلين لا يقضين دينا
ولقد أبحنا ما حمـ يت ولا مبيح لما حمينا
هذا ولو قدرت عليـ يك رماح قومى ما انتهينا
حتى تنوشك نوشة عاداتهن إذا انتوينا

وقال الحطيئة وهو من المخضرمين يهجو بنى بهدلة ورئيسهم الزبرقان بن بدر ويمدح بنى عمهم آل شماس وسيدهم بغيض بن عامر على سبيل المناظرة وهو من أوجع الهجاء وبخاصة بين الاقربين وكان نزيلا عند الاولين فأهملوا أمره فتحول إلى هؤلاء فبالغو فى اكرامه قال :

ألا أبلغ بنى عوف بن كعب فهل حى على خلق سواء
عطاردها وبهدلة بن عوف فهل يشفى صدوركم الشفاء
ألم أك نائيا فدعوتمونى فجاء بى المواعد والدعاء
ألم أك جاركم فتركتمونى لكلبى فى دياركم عواء

---

(١) الضميران للخيل (٢) الأياطل الخواصر (٣) الصلق الضرب على الهامة

وآنيت العشاء الى سهيل أو الشعرى فطال بى الاناء(١)
ألم أك جاركم ويكون بينى وبينكم المودة والاخاء
ولما أن تيتكم أبيتم وشر مواطن الحسب الاباء
ولما أن أتيتهم حبونى وفيكم كان لو شئتم حباء
ولما أن مدحت القوم قلتم هجوت وهل يحل لى الهجاء
فلم أشتم لكم حسبا ولكن حدوت بحيث يستمع الحداء
فلا وأبيك ما ظلمت قريع بأن يبنوا المكارم حيث شاءوا
ولا وأبيك ما ظلمت قريع ولا عنفوا بذاك ولا أساءوا
فابقوا الا أبالكم عليهم فان ملامة المولى شقاء
وان أباهم الادنى أبوكم وإن صدورهم منكم براء

٦ – الوصف

معناه الكشف والاظهار وأبلغه ماقلب السمع بصرا والشعر الا أقله راجع اليه.فهو باب فى عمومه واسع النطاق ولكنه قصر فى عرف الادباء على غير ما اندرج من أوصاف تحت غيره من أبواب .وقد طرقه العرب قديما فى كل ما شملته باديتهم وتناولته حاجاتهم من أرض وسماء واحداث جو والوان نبات وحيوان يدب على الارض وطير يصعد فى الهواء ولكنهم تفاضلوا فيه كما تفاضل الناس فى سائر الاشياء فنهم من أجاد فى كثير من الاوصاف وان غلبت عليه الاجادة فى بعضها كامرىء القيس ومنهم من قصرت إجادته على وصف شىء دون غيره كابى داود الايادى وطفيل الغنوى والنابغة الجعدى فى نعت الخيل وكطرفة بن العبد وأوس بن حجر فى نعت الابل وان كان أكثر العرب

---

(١) آنيت أخرت

يجيد وصفها وكالشماخ فى وصف الحمر الوحشية والقسى وكالاعشى فى وصف الخمر وهكذا ومن ثم عرف فريق من الشعراء باسم الشعراء الوصافين كهؤلاء .

نماذجه

قال النمر بن تولب يصف أبدال الشيب

لعمرى لقد أنكرت نفسى ورابنى | مع الشيب أبدالى التى أتبدل (١)
فضول أراها فى أديمى بعد ما | يكون كفاف اللحم أو هو أفضل (٢)
كأن محطا فى يدى حارثية | صناع علت منى به الجلد من عل (٣)
وقولى إذا ما غاب يوما بعيرهم | يلاقونه حتى يؤب المنخل (٤)
وأضحى ولم يذهب بعيرى غربة | وأشوى الذى أشوى ولا أتحلل (٥)
وظلعى ولم أكسر وأن ظعينتى | تلف بنيها فى البجاد وأعزل (٦)
ودهرى فيكفينى القليل وأننى | أؤوب إذا ما أبت لا أتعلل
وكنت صفى النفس لا شىء دونه | فقد صرت من إقصا حبيبى أذهل
بطىء عن الداعى فلست بآخذ | اليه سلاحى مثل ما كنت أفعل
تدارك ما قبل الشباب وبعده | حوادث أيام تضر وأغفل
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة | ينوء إذا رام القيام ويحمل (٧)
يود الفتى طول السلامة والبقا | فكيف ترى طول السلامة يفعل
دعاني الغوانى عمهن وخلتنى | لى اسم فلا أدعى به وهو أول

---

(١) جمع بدل وهى التغيرات (٢) كفاف اللحم أى مثله و هو أى اللحم (٣) حط الجلد صقله بالمحط وهو حديدة لذلك (٤) يقصد المنخل الشاعر ويضرب المثل بعدم أوبته (٥) أضحى أبقى مقيما فى الضحاء (٦) الظلع العرج والبجاد اللحاف (٧) ينوء يقوم فى ثقل

وقال المرقش الأكبر يصف فرسا

غدونا بضاف كالعسيب مجلل طويناه حتى ماد وهو ملوح(١)
أسيل نبيل ليس فيه معابة كميت كلون الصرف أرجل أقرح (٢)
على مثله تأتي الندى مخايلا وتعبر سرا أى أمريك أفلح
وتسبق مطروداً وتلحق طاردا وتخرج من غم المضيق وتجرح
تراه بشكات المدجج بعدما يقطع أقران المغيرة يجمح (٣)
يجم جموم الحسى جاش مضيقه وبردي بهمن تحت غيل وأبطح (٤)
شهدت به فى غارة مسبطرة يطاعن أولاها سواء ويطرح (٥)

وقال الشماخ بن ضرار يصف قوسا

تخيرها القواس من فرع ضالة لها شذب من دونها وحزائز (٦)
نمت فى مكان كنها فاستوت به وما دونها من غيلها متلاحز (٧)
فما زال ينجو كل رطب ويابس وينغل حتى نالها وهو بارز (٨)
فأنحي عليها ذات حد غرابها عدو لأوساط العضاه مشاوز (٩)

---

(١) الضافى الطويل الذيل والمجلل ذو الجل والعسيب الجريدة لا خوص فيها وملوح مغير من الشمس (٢) الاسيل الطويل والنبيل الغليظ والصرف الخمر خالصة غير ممزوجة والارجل المحجل والاقرح الاغر (٣) الشكات جمع شكة وهى السلاح والمدجج المستور فى سلاحه والمغيرة الخيل (٤) الحسى البئر ويجم يفيض وجاش فار وبردى يسير الرديان والغيل الماء الجاري والأبطح المسيل فيه دقاق الحصا (٥) المسبطرة الممتدة (٦) الضالة السدرة البرية والشذب العيدان والحرائز قطع الشجر (٧) من غيلها فى منبتها ومتلاحز متضايق داخل

(٨) ينجو يقطع وينغل يدخل (٩) ذات الحد الفاس وغرابها حدها والعضاه جمع عضاهة شجر والمشاوز المشاكس

فلما اطمأنت في يديه رأى غنى أحاط به وازور عمن يحاوز (١)
فأمسكها عامين يطلب درأها وينظر منها ما الذي هو غامز (٢)
أقام الثقاف والطريدة متنها كما أخرجت ضغن الشموس المهامز (٣)
فوافى بها أهل المواسم فانبرى لها بيع يغلى بها السوم رائز (٤)
فقال له بايع أخاك ولا يكن لك اليوم عن ربح من البيع لاهز (٥)
فظل يناجى نفسه وأميرها أيأبى الذى يعطى بها أو يجاوز (٦)
فلما شراها فاضت العين عبرة وفى الصدر حزاز من الوجد حامز (٧)
فذاق فأعطته من اللين جانبا كفى ولها أن يغرق السهم حاجز (٨)
إذا أنبض الرامون فيها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز (٩)
هتوف إذا ما خالط الظبي سهمها وإن ريع منها أسلمتة النوافز (١٠)
كأن عليها زعفراناً تميره خوازن عطار يمان كوانز (١١)
إذا سقط الإنداء صينت وأشعرت حبيراً ولم تدرج عليها المعاوز (١٢)

وقال النابغة الجعدى يصف ذئبا افترس جؤذراً

فأمسى عليه أطلس اللون شاحبا شحيحاً تسميه النباطى نهسراً (١٣)
طويل القرا عارى الاشاجع مارد كشق العصا فوه إذا ما تضورا (١٤)

---

(١) ازور مال ويحاوز يجمع ويضم (٢) درأها دفعها (٣) الثقاف خشبة التقويم والطريدة قصبة التعديل والمهامز جمع مهماز (٤) الرائز المجرب الخبير (٥) لاهز صاد (٦) يجاوز يقبل (٧) شراها باعها وحامز ممض محرق (٨) ولها أن يغرق السهم حاجز أي لها حاجز من أن يغرق السهم (٩) أنبض في القوس أصاتها أو حرك وترها لترن (١٠) النوافز القوائم (١١) تميره تميله
(١٢) أشعرت ألبست والمعاوز جمع معوز وهو الثوب الخلق (١٣) شاحبا فاتحا فاه (١٤) القرا الظهر والاشاجع السيقان

فبات يذكيه بغير حديدة أخو قنص يمسى ويصبح مقفرا (١)
إذا ما رأى منه كراعا تحركت أصاب مكان القلب منه وفرفرا (٢)

هذا وباب الوصف حافل لا تفيه النماذج حقه مهما طال إيرادها فلنتركه على هذا القدر على أن نستكمل بعض نقصه من المعلقات بعد ولذا جعلنا المختار منه هنا من غير الأنماط الواردة فيها إلا ما كان من وصف الفرس ومع ذلك نحا المرقش فيه غير ما نحا عنترة وامرؤ القيس

هذا وقد حدنا عن الاختيار من المعلقات لأن لها دراسة بعد

٣ - تسجيلة كثيرا من أحوال العرب

لم تدع فنون الشعر الجاهلي ما ذكرنا منها وما لم نذكر خلقا من أخلاق العرب في ذاك العهد إلا صورته ولا وجدانا من وجداناتهم إلا أظهرته كما لم تدع في بيئتهم كائنا محسادون وصف ولا في عرفهم شيئا من عادة أو عقيدة دون ذكر وحسبنا ما تقدم من نماذج في الخلق والوجدان والوصف

أما الأوابد وهي ما جرى عليها العرف العربي عن عقيدة أو عادة فانا ماطفون عليها هنا بذكر الشواهد الشعرية على الكثير منها دون أن نفصل الكلام في العادة عن العقيدة لأن معظم العادات كان منشؤه الاعتقاد حقاً كان أم باطلا

١ - قال رجل في الاستقسام بالأزلام وكان ذو الخلصة من الاصنام التي يستقسم بأزلامها بين مكة والمدينة فقتل أبوه فاراد الطلب بثأره فذهب اليه فاستقسم عنده فخرج السهم بنهيه فقال

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلي وكان شيخك المقبورا لم تنه عن قتل العداة زورا

(١) يذكيه يذبحه ومقفرا جائعاً (٢) الكراع بضم الكاف الساق أو مستدقه وفرفر كسر وقطع وحرك ونفض

٢ — وقال ابن مقبل يفتخر بالايسار والنجر لها

يا بنت آل هشـام هل علمت إذا أمسى المراضيع فى أعناقها خضع
أنى أتمم أيسارى بذى أود من فرع شوحط ضاح ليطه فرع
يحـدو قتائله بيض غطارفة شم الانوف مغاليق الضحى ضلع
أولو الوفاء ولو أدوا قداحهم ولايزال لهم من لحمها قنع

٣ – وقال جريبة بن الاشيم الفقعسى لابنه يوصيه بالعقر على قبره إذا مات

إذا مت فادفنى بحراء ما بها سوى الاصرخين أو يفوز راكب
فان أنت لم تعقر على مطيتى فلا قام فى مال لك الدهر حالب
ولاتدفننى فى صوى وادفننى بديمومة تنزو عليها الجنادب

٤ — وجريبة هذا هو الذى يقول لابنه أيضا فى البلية

ياسعد إما أهلـكن فاننى أوصيك إن أخا الوصاة الاقرب
لا أعرفن أباك يحشر خلفـكم تعباً يخر على اليدين وينكب
فاحمل أباك على بعير صالح وتق الخطيئة انه هو أصوب
ولعل لى مما جمعت مطية فى الحشر أركبها إذا قيل اركبوا

٥ — ومن أشعارهم فى ضرب الثور لتشرب البقر قول نهشل

كذاك الثور يضرب بالهراوى إذا ما عافت البقر الظماء

ومثل ذلك أشعارهم فى كى السليم ليبرأ الاجرب قال النابغة

لكلفتنى ذنب امرىء وتركته كذى العر يكوي غيره وهو راتع

وقد استخدم الشعراء هذين المعنيين كثيراً فى الرجل يعاقب وغيره الجانى قال الشاعر

فلا تجعلوها كالبقير وفحلها يكسر ضربا وهو للورد طائع
وما ذنبه إن لم ترد بقرانه وقد فاجأتها عند ذاك الشرائع

وقال آخر

فألزمتني ذنباً وغيري جره حنانيك لا تكو الصحيح بأجربا

٦ — وفي مذهبهم في تعليق الحلي والجلاجل على اللديغ ويسمونه سليما تفاؤلا ليبرأ يقول شاعرهم

كأني سليم ناله كلم حية ترى حوله حلى النساء موضعا

ويقول آخر

فبت معنى بالهموم كأنني سليم نفى عنه الرقاد الجلاجل

٧ — وقالت امرأة في زوال حلاً الشفة بوضع المنخل على رأس المصاب بها

ألا حلا في شفة مشقوقه فقد قضى منخلنا حقوقه

٨ — ويروون أن جنية أرادت صبي قوم بسوء فلم تقدر عليه فلامها قومها فقالت تعتذر اليهم

كان عليه نفره ثعالب وهرره والحيض حيض السمره

وهذا على بعده من الحقيقة يوضح عقيدة بعض العرب في أن تعليق سن الثعلب والهرة وصمغ السمرة على الصبي يقيه شر الجنة وكذلك كانوا يعتقدون في تعليق كعب الارنب وأشياء أخرى

٩ — وقال طرفة في تبديل الشمس أسنان الإثغار بخير منها إذا قذفت في عينها

بادن تجلو إذا ما ابتسمت عن شتيت كأقاحي الرمل غر

بدلته الشمس من منبته برداً أبيض مصقول الإشر

١٠ — ومن عقائدهم التي يكاد يجمع عليها الهامة وهي طائر يزعمون خروجه من رأس كل ميت فاذا كان قتيلا لا تزال تقول اسقوني اسقوني فاني صدية حتى يؤخذ بثأره وفي ذلك يقول بعضهم يوصي ابنه

ولا تزقون لي هامة فوق مرقب فان زقاء الهام للمرء عائب

تنادي ألا اسقوني وكل صدى به وتلك التي تبيض منها الذوائب

وقال آخر يهجو ويعير

وان أخاكم قد علمت مكانه   بسفح قبا تسفى عليه الاعاصر
له هامة تدعو إذا الليل جنها   بنى عامر هل للهلالى ثائر

١١ — وقال بعضهم فى رثاء شريف تتخطاه المقاليت « اللائى لاتعيش لهن أولاد »

بنفسى الذي تمشى المقاليت حوله   يطأن له كشحا هضيما مهشما

١٢ — وقريب من هذا ما كانوا يعتقدونه من أن دم الشريف يشفى من الكلب قال عبد الله بن الزبير الاسدى

من خير بيت علمناه وأكرمه   كانت دماؤهم تشفى من الكلب

١٣ — ومن أشعارهم فى كى أليتى العاشق ليذهب عشقه ويشفى منه قول الشاعر

شكوت إلى رفيقى اشتياقى   فجاءانى وقد جمعا دواء
وجاءا بالطبيب ليكويانى   ولا أبغى عدمتكما اكتواء
ولو أتيا بسلمى حين جاءا   لعاضتني من السقم الشفاء

١٤ — أما شق الرجل برقع المرأة وشق المرأة رداءه ليدوم حبهما فمما ورد فيه قول سحيم عبد بنى الحسحاس

إذا شق برد شق بالبرد برقع   دواليك حتى كلنا غير لابس
نروم بهذا الفعل بقيا على الهوى   وإلف الهوى يغرى بهذى الوساوس

١٥ — ومن أشعارهم فى إذهاب خدر الرجل بذكر محبوبه قول الشاعر

صب محب إذا ما رجله خدرت   نادى كبيشة حتى يذهب الخدر

١٦ — ومما يقرب من هذا أن الرجل منهم كان إذا خلجت عينه توقع رؤية من يحب غائبا أو بعيداً وفى ذلك يقول بعضهم

إذا اختلجت عيني تيقنت أنني أراك وان كان المزار بعيداً

١٧ وأشعارهم فى النيران المتنوعة التى اعتادوا ايقادها لما تقدم كثيرة متنوعة أيضاً نذكر منها هنا الشواهد على نارين غريبتين احداهما نار البقر أو الاستمطار وذلك أنهم كانوا إذا حبس عنهم الحيا عمدوا إلى حزم من السلع والعشر وهما نوعان من النبات شديدا الالتهاب فعقدوها فى أذناب البقر وأصعدوها فى جبل وعر ثم أوقدوا فيها وساقوها قبل المغرب قال أعرابى وقد فعلوا ذلك فلم يمطروا ثم أمطرهم الله بعد

شفعنا ببيقور الى هاطل الحيا فلم يغن عنا ذاك بل زاد ناجديا

فعدنا الى رب الحيـا فأجارنا وصير جدب الارض من عنده خصبا

والثانية نار السعالى والسعالى أخبث الغيلان وهى نار يقولون انها كانت تقع للمتغرب المتقفر فيأنس ويهتدى وفى ذلك يقول عبيد بن أيوب :

ولله در الغول أى رفيقة لصـاحب دو خائف متقفر

أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت حوالى نيرانا تبوخ وتزهر

١٨ ـ وعلى ذكر الغيلان وهى السحرة من الجن والشياطين كما كانت العرب تعتقد نقول إنها كانت تعتقد ايضاً أن الجن والشياطين تساكنهم فى بلادهم ولذلك كانوا يعوذون بهم يؤيد ذلك قوله تعالى « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » وقد سجل الشعر ذلك بافاضة قال بعضهم :

قد بت ضيفا لعظيم الوادي المانعى من سطوة الاعادى راحلتى فى جاره وزادى

وقال آخر :

أعوذ من شر البلاد البيد بسيد معظم مجيـد

اصبح ياوى بلوى زرود ذى عزة وكاهل شديد

وقال غيرهما

ياجن أجزاء اللوى من عالج   عاذ بكم ساري الظلام الداج
لا ترهقوه بغوى هائج

وقال رابع

هيا صاحب الشجراء هل أنت مانعي   فاني ضيف نازل بفنائكا
وانك للجنان في الأرض سيد   ومثلك آوى في الظلام الصعالكا

واستعاذ رجل ومعه ولد بعظيم واد فأكل ابنه الاسد فقال

قد استعذنا بعظيم الوادي   من شر مافيه من الاعادي   فلم يجرنا من هز برعاد

١٩ — ولقد تمادى العرب في هذه العقيدة حتى ادعى بعضهم مخالطة الجن ومكالمتهم واستضافتهم بل والتزوج منهم وتناسلهم ولهم في ذلك أشعار وأقاصيص فهذا جذع بن سنان يقول

أتوا ناري فقلت منون أنتم   فقالوا الجن قلت عموا صباحا

وسمير بن الحارث الضبي يقول

أتوا ناري فقلت منون قالوا   سراة الجن قلت عموا ظلاما

وهذا عمرو بن يربوع يزعم أنه تزوج من غول وولد له بنون عرفوا ببني السعلاة وفي ذلك يقول شاعر يهجوهم

ياقبح الله بني السعلاة   عمرو بن يربوع شرار النات   ليسوا بأبطال ولا اكيات

وتأبط شرا يدعى أنه قابل غولا اعترضته فقتلها فقال

لهان على جهينة ما ألاقى   من الروعات يوم رحى بطان
لقيت الغول تسرى في ظلام   بسهب كالعباءة صحصحان

فقلت لهـا كلانا نضو أرض أخو سفر فخلي لى مكاني

فشدت شدة نحوي فأهوى لها كفى بمصقول يمان

٢٠ — ومن هذه الناحية من الاتصال ما كان يزعمه العرب وشعراؤهم من أن لكل شاعر شيطانا يلقى اليه بالشعر وكانوا يعتقدون بوجه عام أن للشعر شيطانين الهوبر مجيد والهوجل مفسد روى أن رجلا من تميم أتى الفرزدق فقال إني قد قلت شعرا فانظره قال أنشدني فقال

ومنهم عمر المحمود نائله كأنما رأسه طين الخواتيم

فضحك الفرزدق ثم قال يا ابن أخى ان للشعر شيطانين يدعى أحدهما الهوبر والآخر الهوجل فمن انفرد به الهوبر جاد شعره وصح كلامه ومن انفرد به الهوجل فسد شعره وانهما قد اجتمعا لك فى هذا البيت فكان معك الهوبر فى أوله فأجدت وخالطك الهوجل فى آخره فأفسدت ومن هنا كانوا يسمون الشعر رقى الشياطين قال جرير

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطانى من الجن راقيا

ولهذه العقيدة كانوا يسمون لكل مجيد من الشعراء شيطانا خاصا وكانوا يتحاكمون إلى الجنة إذا ظفروا بهم فى تفضيل الشعراء بعضهم على بعض ولهم فى ذلك حكايات وأقاصيص نسوق بعضها على سبيل التمثيل

١ — ذكر مطرف الكناني عن ابن دأب عن رجل من أهل زرود عن أبيه عن جده أنه خرج على فحل له فى طلب لقاح ضالة حتى دفع إلى خيمة بفنائها شيخ كبير فدارت بينهما مكالمة انتهت بطلبه من هذا الشيخ أن ينشده من أشعاره فأنشده

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فلما فرغ قال له لو أن امرأ القيس ينشر لردعك عن هذا الكلام فقال له أنا والله منحته ما أعجبك منه قال فقلت له ما اسمك قال لافظ بن لاحظ قلت اسمان منكران قال أجل فعلمت أنه من الجن فقلت له من أشعر العرب فأنشأ يقول

ذهب ابن حجر بالقريض وقوله　　ولقد أجاد فما يعاب زياد

لله هاذر إذ يجود بقوله　　ان ابن ماهر بعدها لجواد

قلت من هاذر بن ماهر قال صاحب زياد الذبياني وهو أشعر الجن وأضنهم بشعره فالعجب منه كيف سلسل لأخي ذبيان به ولقد علم بغية لي قصيدة له له من فيه إلى أذنها ثم صرخ بها اخرجي فدى لك من ولدت حواء فخرجت فأنشدتني .

نأت بسعاد عنك نوى شطون　　فبانت والفؤاد بها حزين

حتى أتت على قوله منها

فألفيت الامانة لم تخنها　　كذلك كان نوح لا يخون

فقال والله لو كان رأى قوم نوح فيه كرأى هاذر ما أصابهم الغرق قال الرجل فحفظت البيتين ثم نهض بي الفحل فعدت إلى لقاحي

ب — وحدث مظعون بن مظعون الاعرابي عن أبيه أنه خرج على بعيرله حتى إذا كان فى سفح جبل رأى على قنته رجلا عليه أطمار بالية وتجمت بينهما محاورة انتهت بقوله للرجل أتروى من أشعار العرب شيئا قال نعم أروى وأقول قولا فائقا مبرزا قال فقلت أرنى من قولك ما أحببت فأنشأ يقول

طاف الخيال علينا ليلة الوادى　　لآل أسماء لم يلمم لميعاد

حتى فرع منها فقلت لهذا الشعر أشهر فى معد بن عدنان من ولد الفرس الابلق فى الدهم العراب هذا لعبيد بن الابرص الاسدي فقال ومن عبيد لولا هبيد قلت ومن هبيد فانشأ يقول

أنا ابن الصلادم أدعى الهبيـ ـدحبوت القوافى قرمى أسد
عبيـدا حبوت بمأثوره وأنطقت بشرا على غير كد
ولاقى بمدرك رهط الـكميـ ـت ملاذا عزيزا ومجدا وجد
منحناهم الشعر عن قدرة فهل تشكر اليوم هـذا معد

فقلت أما عن نفسك فقد أخبرتني فأخبرنى عن مدرك فقال هو مدرك بن واغم صاحب الكميت وهو ابن عمى

ج - وذكر شيخ من أهل البصرة أنه خرج فى ليلة مقمرة على جمل له الى الصحراء فأبصر شبحا كهيئة انسان على ظهر ظليم قد خطمه وهو يقول

هل يبلغنيهم إلى الصباح هقل كأن رأسه جماح

فعلم أنه جنى قال فقلت له من أشعر الناس قال الذى يقول

وما ذرفت عيناك الا لتضربي بسهميك فى أعشـار قلب مقتل

فعلمت أنه يريد امرأ القيس قلت ثم من قال الذى يقول

وتبرد برد رداء العرو س فى الصيف رقرقت فيه العبيرا
وتسخن ليلة لايستطيـ ـع نباحا بهـا الـكلب إلا هريرا

فعلمت أنه يريد الاعشى قلت ثم من قال الذي يقول

تطرد القر بحر صادق وعكيك الصيف ان جاء بقر

فعلمت أنه يريد طرفة وانقطع الحديث

د — وحدث الاعشى أنه خرج يريد قيس بن معديكرب بحضرموت فضل حتى وقعت عينه على خباء ببابه شيخ فانتسب له وأفهمه أنه يقصد قيسا فقال له حياك الله أظنك امتدحته بشعر قال نعم قال فأنشدنيه فأنشدته

حلت سمية غدوة أجمالها غضبا عليك فما تقول بدا لها

فقال حسبك هذا البيت أهذه القصيدة لك قلت نعم قال من سمية قلت لا أعرفها انما هو اسم ألقى فى روعى فنادى ياسمية اخرجى أنشدى عمك قصيدتى التى مدحت بها قيس بن معديكرب فاندفعت تنشد حتى أتت على آخرها لم تخرم فيها حرفا ثم قال هل قلت شيئا غير ذلك قلت نعم كان بينى وبين ابن عم لى يقال له يزيد بن مسهر ما يكون بين بنى العم فهجانى فهجوته فأفحمته قال ماذا قلت فيه قلت قلت

ودع هريرة ان الركب مرتحل   وهل تطيق وداعا أيها الرجل

فقال حسبك من هريرة قلت لا أعرفها وسبيلها سبيل التى قبلها فنادى ياهريرة أنشدى عمك قصيدتى التى هجوت بها يزيد بن مسهر فانشدتها كسابقتها فسقط فى يدى وتحيرت وتغشتنى رعدة فلما رأى ما نزل بى قال ليفرخ روعك يا أبا بصير أنا هاجسك مسحل بن أثاثة الذي ألقى على لسانك الشعر قال فسكنت نفسى ثم دلنى على الطريق وأرانى سمت مقصدى . وفى مسحل هذا يقول الاعشى

وما كنت شاحوذا ولكن حسبتنى   اذا مسحل يسدى لى القول أعلق

شريكان فيما بيننا من هوادة   صفيان انسى وجن موفق

يقول فلا أعيا بقول يقوله   كفانى لاعى ولا هو أخرق

ويقول فيه وفى جهنام شيطان فرو بن قطن

دعوت خليلى مسحلا ودعوا له   جهنام جدعا للهجين المذمم

وهذا مذهب شائع قال حسان بن ثابت

ولى صاحب من بنى الشيصبا   ن فطورا أقول وطورا هوه

وقال أبو النجم

انى وكل شاعر من البشر   شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

وقال آخر

اني وإن كنت صغير السن   وكان في العين نبو عني
فان شيطاني أمير الجن   يذهب بي في الشعر كل فن

والرأى فى هذا وأمثاله أن الجن مع وجودها لا يقع منها للانسي ما تدعى العرب وانما هذه تخيلات صوروها ليرفعوا من قيمة الشعر وأنه كالسحر لا ينبغي صدوره إلا عن الجن الذين هم فى اعتقادهم مصدر العبقرية فى كل شيء ولذلك يقولون عن كل معجب عبقرى نسبة الى عبقر وما عبقر عندهم إلا واد للجن وليس هذا الخيال قاصرا على العرب وحدهم اذ تشاركهم فيه الأمم القديمة جميعا بل كان معظمها يعبد هذه القوى الخفية من خيرة طمعا فى خيرها وشريرة خوفا من شرها . أما تلك الاقاصيص فهى أساطير حاكوها كما حاكوا مضارب الامثال الفرضية وكما وضعت سائر الأمم أساطيرها وليس عليهم فى ذلك ما يعاب فى الناحية الادبية ينبغى أن يطلق من عنان الخيال ماشاء الخيال

٤ ـ تأثيره ومنزلة رجاله

لقد كان للشعر فى العرب تأثير ما أبلغه من تأثير ولرجاله بينهم مكانة ما أرفعها من مكانة ذلك انهم كانوا ذوى فطر سليمة ونفوس حساسة وكان الشعر طبيعة فيهم يمتزج منهم بالدم واللحم لا يزالون يقولونه ويستوحون سماءه فينقادون لخياله ويخضعون لاحكامه . وكان للشعراء عليهم نفوذ وسلطان لا يقل شأنا عن نفوذ الصحف السيارة الآن على الافراد والجماعات فكانت كل قبيلة تغتبط بكثرة شعرائها وتتخير من بينهم اقواهم حجة وابلغهم قولا ليكون المشيد بمحاسنها ومفاخرها الذاب عن احسابها واعراضها . أثرفيها اثر

أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى لتهنئتها فصنعت الاطعمة ومدت الموائد وتباشر الرجال والولدان واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الاعراس . ولشدة ما كان للشعر من تأثير جاوز فيه المنطق وتعدى المعقول نسبه العرب إلى الجن وسموا الشعراء بالساحرين قال رؤبة

لقد خشيت أن تكون ساحرا　　راوية مرا ومرا شاعرا

وكان ذلك عاما فى كل باب من أبوابه كان يبلغ الشاعر ما لا يبلغ غيره إذا نسب رقق القلوب القاسية واستنزل العصم العاصية وإذا وصف أراك ما لم تر كأنه المرئى وقد يكون تمثيلا لا يستند الا الى الخيال والتصوير واذ رثى أثار الشجون وحرك مكامن الذكريات فاذا ما فخر بالحماسه والاستبسال حبب الى الجبناء القتال وأرخص الموت على مغلى الحياة قال معاوية بن أبى سفيان اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم فلقد رأيتنى ليلة الهرير بصفين وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الارض وأنا أريد الهرب من شده البلوى فما حملنى على الاقامة إلا أبيات عمرو بن الاطنابة

أبت لى همتى وأبى بلائى　　وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقحامى على المكروه نفسى　　وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت　　مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات　　وأحمى بعد عن عرض صحيح

وابن الاطنابة كما تقدم من شعراء الخزرج الجاهليين

أما شعراء المديح والهجاء فقد كانوا شفاء أقوامهم وسموم أعدائهم لا يزالون لقبائلهم يحمون سلطانها ويرفعون بنيانها كما يذبون عن حياضها ويدافعون عن وردها وأمر احتماء القبائل بشعرائها كثير الحوادث مروى الأشعار ولكن

الذى نريده أقوى حجة فى الاستدلال على تأثير الشعر أن الشاعر كان إذا تعرض لقبيلة بهجاء وفيها من الشعراء من يخشى لسانه ويتقى هجوه لم يك أمام قبيلته فى دفع ماتحذر الا حمله الى من هجاهم متبرئة منه ومسلمة فيه وهذا ماحدث حين هجا عبد الله بن الزبعرى السهمى بنى قصى فقد رفعه السهميون الى عتبة بن ربيعة خوفا من هجاء الزبير بن عبد المطلب وكان شاعرا شديد العارضة قذع الهجاء فلما وصل عبد الله اليهم أطلقه حمزة بن عبدالمطلب وكساه فقال عبد الله غير مستنكر مافعلت عشيرته

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتي   وان صالحت اخوانها لاألومها

فان قصيا أهل مجد وعزة   وأهل فعال لايرام قديمها

وكان الزبير غائبا بالطائف فلما وصل الى مكة وعلم الخبر قال

فلولا نحن لم يلبس رجال   ثياب أعزة حتى يموتوا

ثيابهم سمال أو طمار   بها ودك كما دسم الحميت

ولكنا خلقنا إذ خلقنا   لنا الحبرات والمسك الفتيت

وكان الشاعر اذا رضى لنفسه أن يتجاوز بمدحه وهجائه قبيلته وأعداءها تطلعت اليه القبائل الاخرى فأخذت تقربه رجاء مدحه فيها وهجائه لمناظريها كما كان من الحطيئة فقد استضافه الزبرقان بن بدر من بنى بهدلة وقصرت امرأته فى اكرامه وهو غائب فأخذه بغيض بن عامر من آل لأى بن شماس وبالغ فى اكرامه فكان خبر ماقاله من شعر هجاء ومدحا فى هذين الحيين وقد دلف شىء منه فى النماذج

على أن التحاسد على الشعراء لم يك قاصرا على القبائل بل تعداها الى الملوك فهذا النعمان بن المنذر ملك الحيرة تبصر كيف كان اجتذابه للنابغة

بمدحه وبمدح آل بيته وكيف حسده عليه الغساسنة ملوك الشام فأعظموا في حبائه حتى مدحهم ثم كيف غضب النعمان عليه لذلك غضبا سارت باعتذارات النابغة عنه الامثال ومع ذلك لم ينل من النعمان رضا لأن الشركة في هذا الباب بين متناظرين ليست مما يطاق

ومن غريب تأثير الشعر أن الشاعر كان اذا وصم سيدا لم يجد من يغسل عنه ذلك الا هذا الشاعر نفسه ذكروا أن بشر بن أبي خازم الأسدى لما حمل على هجاء أوس بن حارثه بن لأم الطائى فهجاه بما تقدم بعضه ووقع بشر أسيرا عند بنى نبهان من طيء اشتراه أوس بمائتى بعير ولما أخذه قال له هجوتنى ظالما فاختر بين قطع لسانك وحبسك فى سرب حتى تموت وبين قطع يديك ورجليك وتخلية سبيلك هكذا ذكر الرواة ورأيى أن سياق القول يقتضى قرن التخلية بقطع اللسان والحبس بتقطيع اليدين والرجلين وأن هذا تحريف قالوا فسمعت أمه وهى سعدى بنت حصن من سادات طيء فقالت لأوس يابنى لقد مات أبوك فرجوتك لقومك عامة فأصبحت والله لا أرجوك لنفسك خاصة أزعمت أنك قاطع رجلا هجاك فمن يمحو اذن ماقال فيك قال فما أصنع به قالت تكسوه حلتك وتحمله على راحلتك وتأمر له بمائة ناقة حتى يغسل مديحه هجاءه ففعل فامتدحه فأكثر قال أبو محمد الاخفش مدح بشر أوسا وأهل بيته مكان كل قصيدة هجاهم بها قصيدة وكان هجاهم بخمس فمدحهم بخمس

ومن مدائحه فيه قوله من قصيدة والخطاب للناقة

الى أوس بن حارثة بن لأم لربك فاعملى ان لم تخافى
فما صدع بخبة أو بشرج على زلق زوالق ذى كهاف

نزل اللقوة الشغواء عنها مخالبها كأطراف الاشافى
بأحرز موئلا من جار أوس اذا ماضيم جيران الضعاف
وماليث بعثر فى غريف تغنيه البعوض على النطاف
مغب مايزال على أكيل يناغى الشمس ليس بذى عطاف
بأباس سورة بالقرن منه اذا دعيت نزال لدى النقاف
وماأوس بن حارثة بن لأم بغمر فى الامور ولا مضاف

ومن ذلك ما كان من حسان بن ثابت فى بنى عبد المدان هجاهم ببسطة أجسامهم وكانوا يفخرون بها فقال

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال واحلام العصافير

فلم يزالوا يخجلون منها حتى محا ذلك عنهم بقوله

وقد كنا نقول اذا التقينا لذى جسم يعد وذي بيان
كأنك أيها المعطى لسانا وجسما من بنى عبد المدان

وأغرب مما تقدم فى تأثيره أنه كان اذا تعرض لنابه أنزله من ذروته فاذا أمان خاملا رفعه من وهدته فممن قضى على مكانتهم الربيع بن زياد وكان من خواص النعمان لم يزل ينادمه ويؤاكله حتى سمع فيه وهما يأكلان أرجوزة لبيد التى يقول فيها « مهلا أبيت اللعن لا تأكل معه » وفيها إقذاع فرفع يده عن الطعام فقال الربيع أبيت اللعن كذب الغلام وأراد الاعتذار فقال النعمان

قدقيل ماقيل ان صدقا وان كذبا فما اعتذارك من قول اذا قيلا

ثم حجبه بعد ذلك فسقطت منزلته : وممن رفعهم بعد خمول المحلق الكلابى وكان مملقا كثير البنات قد رغب عن مصاهرته الازواج فأشارت عليه امرأته أن يضيف الاعشى وهو قادم إلى الموسم فيكرمه بكل ما يملك ليقول فيه قولا تتزوج

به بناته وتحسن حاله ففعل وعرف الاعشى ذلك فلما أصبح بعكاظ أنشد قافيته المشهورة التى يقول فيها فيما نحن بصدده

نفى الذم عن رهط المحلق جفنة   كجابية الشيخ العراقى تفهق

ترى القوم فيها شارعين وبينهم   مع القوم ولدان من النسل دردق

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة   الى ضوء نار باليفاع تحرق

تشب لمقرورين يصطليانها   وبات على النار الندى والمحلق

رضيعى لبان ثدى أم تحالفا   بأسحم داج عوض لا نتفرق

ترى الجود يجرى ظاهرا فوق وجهه   كما زان متن الهندوانى رونق

فما أتم القصيدة الا والناس يتسالون إلى المحلق يهنئونه ويخطبون بناته فلم تمس واحدة منهن الا فى عصمة رجل بين الفضل على ابيها .

بل لقد بلغ من تأثير الشعر أنه كان ببيت واحد يجعل مفخرة القبيلة مسبة ومسبتها مفخره كان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم لابيهم لما روى من أنه لقب به لتعجيله قري الاضياف فلما هجاهم النجاشى بأبيات منها

وما سمي العجلان الا لقولهم   خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

صاروا يستحيون منه وكان بنوا أنف الناقة يخجلون من هذا الاسم ويتجاوزونه فى نسبهم حتى قال الحطيئة

قوم هم الانف والاذناب غيرهم   ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

صاروا يتطاولون به ويمدون فيه أصواتهم بجهارة

ل بلغ من تأثيره أيضا أنه كان كما قيل

يرى حكمة مافيه وهو فكاهة   ويقضى بما يقضى به وهو ظالم

وقديما نفر عامر بن الطفيل على علقمة بن علاثة مع تسوية الحكم وهو

هرم بن قطبة بينهما بقول الاعشى

علقم ماأنت الى عامر بالناقض الاوتار والواتر

إن تسد الحوص فلم تعدهم وعامر ساد بنى عامر

الى آخر ماقال

من ذلك كله وغيره كان الشعراء ذوى منزلة ترجى وترغب كما تخاف وترهب لا يزالون يستخدمون للوعيد والاغراء ويستعان بهم فى الاستعطاف والاستشفاع ففى الجاهلية أغرى أوس بن حجر النعمان بن المنذر على بنى حنيفة فنكل بهم واستشفع علقمة الفحل الحارث الغسانى فى أخيه شاس وتسعين أسيرا معه من تميم فأطلقهم له جميعا وفى حياة النبي صلى الله عليه وسلم كان ما كان للمسلمين والمشركين على ألسنة الشعراء من الفريقين وأمر رسول الله فى ذلك وفى قبول الشفاعات من الشعراء ثابت معروف وما بعده فى سائر العصور كثير مشهور ولكن لاداعى ونحن فى العصر الجاهلى أن نجاوزه الى ماخلفه من عصور فيما كان للشعر من أثر وللشعراء من مكان

٥ — طبقات الشعراء ومنزلة أصحاب المعلقات فيهم ثم سبب تسميتها بهذا الاسم

ليس فى طبقات الشعراء من حيث عصور التاريخ خلاف فالكل مجمعون على أنهم أربع طبقات جاهليون لم يدركوا الاسلام كامرىء القيس أو أدركوه ولم يقولوا فيه شعرا كلبيد ومخضرمون أدركوه وقالوا فيه شعرا كحسان والحطيئة واسلاميون وهم من لم يدركوا الجاهلية ونهايتهم آخر العصر الاموى .

كالفرزدق وجرير والاخطل ثم مولدون وهم الذين اختلطوا بشعوب الامم الاخرى من الفرس والروم والمصريين وغيرهم منذ الدولة العباسية إلى ماشاء الله

ولكن الخلاف كبير فى تقسيمهم من حيث الشعر والشهرة فى كل عصر من هذه العصور والذى يعنينا الآن العصر الجاهلى وأقصد القول فيه ماكان لابى عبيدة معمر بن المثنى فقد جعله ثلاث طبقات يضع فى أولاها امرأ القيس وزهيرا والنابغة وفى ثانيتها الاعشى ولبيدا وطرفة وفى ثالثتها عنترة وعمرو بن كلثوم وعروة بن الورد ودريد بن الصمة والمرقش الاكبر وحاتما الطائى وكأنه سكت عن طبقة رابعه يوضع فيها الحارث بن حلزة وسائر الشعراء وبذلك تفهم طبقة كل واحد من رجال المعلقات . ولعل أطول تقسيم للطبقات مافعل ابن سلام فقد أوصلها الى عشر غير شعراء المراثى وشعراء القرى العربيه الخمس وهي المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين وغير شعراء اليهود فى المدينة وأكنافها ووضع فى كل طبقة أربعة شعراء على مافى اتحاد العدد من تحكم لايتفق وطبيعة التقسيم فكان امرؤ القيس وزهير فى الاولى ومعهما النابغة والاعشى وكان لبيد فى الثالثة ومعه نابغة بنى جعدة وأبو ذؤيب الهذلى والشماخ بن ضرار وكان طرفة فى الرابعة ومعه عبيد بن الابرص وعلقمة بن عبدة الفحل وعدى بن زيد وكان عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة فى السادسة ومعهم سويد بن أبى كاهل وليس فيما لم نذكر من باقى الطبقات وهى الثانية والخامسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة أحد من رجال المعلقات

فابن سلام على طول تقسيمه يتفق مع أبى عبيدة فى أن المقدمين على جميع الشعراء أربعة هم امرؤ القيس وزهير والنابغة والاعشى وهذا الذى يكاد ينعقد

عليه الاجماع غير أن الخلاف فى أيهم المقدم بالغ أشده فعلماء البصرة يقدمون امرأ القيس وأهل الكوفة يقدمون الاعشى والحجازيون يقدمون زهيرا والنابغة والذى يجدر بالباحث اتباعه عدم الاعتداد بهذا الخلاف لأنه لفظى أكثر منه فى الصميم إذ لكل وجهة نظر تخالف وجهة الآخرين. فمن احتج لامرىء القيس نظر الى سبقه فى ابتداع أشياء استحسنها العرب واتبعه فيها الشعراء كاستيقاف الاصحاب وبكاء الاطلال والاكثار من التغزل وتشبيه النساء بالبيض والظباء والخيل بالعقبان والوحوش وأنها قيد الاوابد وغير هذا ومن احتج لزهير نظر الى أنه أحكمهم شعرا وأبعدهم من السخف وأجمعهم الكثير من المعانى فى قليل من الالفاظ وأنه كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتبع حوشيه وأنه مع بلوغه فى المدح لم يمدح أحدا بغير ماهو فيه . ومن احتج للنابغة قال إنه أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتا وكأن شعره منثور لاتكلف فيه . أما أصحاب الاعشى فقالوا إنه أكثرهم عروضا وأذهبهم فى الشعر فنونا وأكثرهم طويلة جيدة ومدحا وهجاء ونظرا وصفة هكذا قال ابن سلام وذكر أنه شهد خلفا وقد قيل له من أشعر الناس فقال ماينتهى هذا الى واحد يجتمع عليه كما لا يجتمع على أشجع الناس وأخطب الناس وأجمل الناس

والذى عليه أكثر الرواة فى المعلقات أنها كما جمعها حماد وأوردها الزوزني سبع وهى بالترتيب قفانبك لامرىء القيس ، لخولة أطلال لطرفة ، أمن أم أوفى لزهير ، عفت الديار للبيد ، ألاهبي لعمرو بن كلثوم ، هل غادر الشعراء لعنترة ، آذنتنا ببينها للحارث بن حلزة وقدجعلها صاحب الجمهرة ثمانيا باسقاط ابن حلزة وزيادة النابغة فالاعشي بعد زهير ومعلقة الاول «عوجوا فحيوا لنعم

دمنة الدار » ومعلقة الثانى « ما بكاء الكبير بالأطلال » و بعدهم لبيد فعمرو فطرفة فعنتره . أما التبريزى فجعلها عشرا بزيادة ثلاث على السبع اثنتين للنابغة والأعشى كما فعل صاحب الجمهرة والكتبى « يادار مية بالعلياء فالسند » للنابغة « ودع هريرة ان الركب مرتحل » للأعشى ثم واحدة لعبيد هى « أقفر من أهله ملحوب » وقد ألحق بها قصيدة ثانية للأعشى هى « ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا »

وفى سبب تسميتها بالمعلقات خلاف . فابن عبد ربه يقول إنه تعليقها على الكعبة وهذا كلامه (وقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة وعلقتها بأستار الكعبة فمنه يقال مذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير والمذهبات سبع يقال لها المعلقات) وقد وافقه على ذلك ابن رشيق وابن خلدون الا أن الاخير لم يقيد التعلق بالاستار ولا الكتابة بماء الذهب ولا فى القباطى وقال بقوله صاحب الخزانة

وأبو جعفر النحاس وكان معاصرا لابن عبد ربه ينكر التعليق على الكعبة ويقول إنه لا يعرفه أحد من الرواة مستندا فى ذلك على أن حمادا حين جمعها قال هذه هى المشهورات فسميت القصائد المشهورة ولو كانت علقت على الكعبة لاعطاها هذا الاسم . وقد أخذ المستشرقون بهذا الرأى على زعم أنه لم يوجد للتعليق أثر ولا ذكر حين تهدمت الكعبة وجددت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى زعم أن العرب لا تدنس الكعبة بتعليق أمثال شعر امرىء القيس عليها ولكن هذين الزعمين ليسا بالدليلين القاطعين فان التدنيس ليس مما تراه العرب فى الشعر لماله عندهم من عظيم المكانة وهذا عبد الله بن عباس على منزلته كان يجلس فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع شعر

ابن أبي ربيعة فلا ينكر عليه ذلك وأما عدم وجود أثر أو ذكر فسببه أن التعليق لم يك دائما بل فى فترات غير طويلة لاتعدو الموسم الذى قيلت فيه المعلقة وقد ذهب كل ذلك قبل الاسلام هذا على أن تعليق الاشياء الهامة على الكعبة كان من دأب العرب جاهلية واسلاما فقد علقت قريش الصحيفة التى تآمرت فيها على قطيعة بنى هاشم وعلق الرشيد عهده بالخلافة للأمين والمأمون.

والذين ينكرون هذا التعليق يلتمسون لهذه التسمية سببا غيره فمنهم من يقول ان الاشعار حينما كانت تنشد بعكاظ وتستحسن يبلغ ذلك ملك الحيرة فيقول علقوا لنا هذه بمعنى أثبتوها فى خزائننا وقد روي أنه كان عند ملوك الحيرة ديوان مكتوب جمع فيه شعر الفحول على مارواه ابن سلام. ومنهم من يقول إن العرب كانت فى الجاهلية اذا كتبت شيئا فى الرقاع المستطيلة من الحرير أو الجلد أو نحوهما تخافت عليه قرض فأرة أو تأكل عثة طوته على عود أو خشبة وعلقته فى جدار البيت أو الخيمة بعيدا عن الارض ولحرصهم على المعلقات فعلوا بها ذلك فأخذت هذا الاسم

ذلك مجمل ماقيل فى أسباب التسمية بالمعلقات وعندى أن أنتجها هوالقول تعليقها على الكعبة ولكن كما قال ابن خلدون والبغدادى لأن غيره لاينهض بتلك التسمية على أية حال

٦ — منزلة المعلقات من الشعر الجاهلى

أما منزلتها من الشعر الجاهلى فى الذروة من منازله لما امتازت به من طول القافية وتنوع الاغراض وكثرة ما ابتكر فيها من ضروب المعاني والتشبيهات على ما لاسلوبها من القوة والمتانة وهذه نبذة عن مشتملات كل معلقة وبعض النماذج لهذه المشتملات تبين ماذكرنا من ميزات

١ — معلقة امرئ القيس

سلك امرؤ القيس فى معلقته مسلكا صور فيه حياته فأرانا كيف كان يعيش لاهيا لاعبا قد أرخى لنفسه العنان الى غير حد فلم يتصنع فى احساس ولم يتستر وراء تعبير بل ترك بيانه طوع شعوره لاسلطان لعقله على هواه ولا فكاك للسانه عما يريد وكل ذلك فى أغراض متجانسة وأساليب يأخذ بعضها بحجز بعض

بدأها بخير مطلع عرف على غير مثال سابق هو الوقوف على الأطلال للبكاء من ذكرى أحبابها الراحلين وقد تصور مرارة البين والفراق فوقف أصحابه يؤسونه وهو لايرى من شفاء فى غير سفح العبرات قال

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقال

كأنى غداة البين يوم تحملوا   لدى سمرات الحى ناقف حنظل (١)
وقوفا بها صحبي على مطيهم   يقولون لاتهلك أسى وتجمل
وان شفائى عبرة مهراقة   فهل عند رسم دارس من معول

بهذا بدأ ثم انسل الى أن ذلك دأبه من أمى الحويرث والرباب وأخذ يصفهما ويذكر أياما له معهما ومن ذلك خاص الى يوم الدارة مع فاطمة ابنة عمه فأطال ماشاء وكان ختام محاورته معها ذلك العتاب

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل   وان كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
وان تك قد ساءتك منى خليقة   فسلى ثيابى من ثيابك تنسل (٢)

---

(١) السمر شجر و نقف الحنظل شقه عن حبه (٢) قيل ان المراد بالثياب هنا القلب

أغرك مني أن حبك قاتلي وانك مهما تأمري القلب يفعل
وما ذرفت عيناك الا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل (١)

وكأنه عز على نفسه أن يكون الذليل أمامها فأخذ يريها عزته مع غيرها وكان من ذلك دبيبه الى ربة خدر هو ذو منزلة منها على ما أوتيت من منعة وجمال أخذ يصف آياته ويعدد محاسنه الى أن قال

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل
الى مثلها يرنو الحليم صبابة اذا ما اسبكرت بين درع ومجول (٢)
تسلت عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادي عن هواها بمنسل

وقد دفع به الدبيب الذى كان ليلا حيث يقول

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل (٣)

إلى ذكر الليل وطوله على ذوى الهموم فبلغ في ذلك مبلغا كان آية الاعجاز اسمع اليه يقول

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل (٤)
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الاصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل (٥)
كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتان الى صم جندل (٦)

---

(١) السهمان هما المعلى بسبعة والرقيب بثلاثة وآخذهما لا يبقى من أقسام البعير شيئا لانها عشرة (٢) اسبكرت استطالت والدرع ثوب الكبيرة والمجول ثوب الجارية (٣) الاثناء الاوساط والمفصل الذى فصل بين خرزه (٤) الصلب الظهر والعجز المؤخر والكلكل الصدر (٥) مغار الفتل شديده ويذبل جبل (٦) مصامها سكونها والامراس الحبال

وهذا ليل قد أحياه ساهرا غير ليل الديب (والحديث ذو شجون) بقطع الاودية سماعا لعواء الذئاب مشبها نفسه بها الى أن ولى فغدا الى الصيد بفرس أتى فى وصفه بما لم يسبقه اليه سابق ولا أدركه فيه لاحق قال

وقد أغتدى والطير فى وكناتها   بمنجرد قيد الاوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا   كجلمود صخر حطه السيل من عل
درير كخذروف الوليد أمره   تتابع كفيه بخيط موصل (١)
له أيطلا ظبي وساقا نعامة   وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (٢)

وما إن عن له سرب حتى حمل علية بفرسه الذى يقول فيه بعد أن أجاد نعته

فعادى عداء بين ثور ونعجة   دراكا ولم ينضح بماء فيغسل
فظل طهاة اللحم من بين منضج   صفيف شواء أو قدير معجل (٣)

وهكذا قضى يومه مع صحبه ثم راحوا وكانت العشية عشية برق ينذر بمطر وابل لم يلبث أن هطل

فأضحى يسح الماء حول كتيفة   يكب على الاذقان دوح الكنهبل (٤)
ومر على القنان من نفيانه   فأنزل منه العصم من كل منزل (٥)

ثم لم يترك جذع نخلة الا قعره ولا أطما الا جدله فغدا ثبير ورأس المجيمر وهما جبلان كما قال

كأن ثبيرا فى عرانين وبله   كبير أناس فى بجاد مزمل (٦)

---

(١) الدرير الدار والخذروف نحلة الصبي (٢) أيطلا الظبي خاصرتاه والسرحان الذئب والتتفل الثعلب (٣) القدير ما يطبخ فى القدر (٤) كتيفة موضع والكنهبل شجر ودوحه عظيمه (٥) القنان جبل ونفيان المطر ما يتطاير منه ومن زائده (٦) ثبير جبل وعرانين الوبل أوائله ومزمل صفة لبجاد تجوزا

كأن ذرا رأس المجيمر غدوة   من السيل والغثاء فلكة مغزل(١)

وما أجمل موازنته بين حالى المكاكى والسباع غب هذا السيل حيث يقول وبه ختم المعلقة

كأن مكاكى الجواء غدية   صبحن سلافا من رحيق مفلفل(٢)

كأن السباع فيه غرقى عشية   بأرجائه القصوى أنابيش عنصل(٣)

٢ — معلقة طرفة

بدأ طرفة معلقته كما بدأ امرؤ القيس بالوقوف علي الدمن وتذكر أهلها الظاعنين واتفق معه لولا القافية فى البيت

وقوفا بها صحبي على مطيهم   يقولون لاتهلك أسى وتجلد

ولكنه خالف فى ذكر الهوادج وفى تشبيهها بالسفن وتشبيه حيازيم السفن بيد المفايل قال

كأن حدوج المالكية غدوة   خلايا سفين بالنواصف من دد(٤)

عدولية أو من سفين ابن يامن   يجور بها الملاح طورا ويهتدى(٥)

يشق حباب الماء حيزومها بها   كما قسم الترب المفايل باليد (٦)

ومنها انتقل الى التشبيب بفتاة تشبيبا لم يطل فيه ولكنه أجاد وكان فيما قال فى الثغر والوجه

---

(١) المجيمر جبل والغثاء النبت وفلكة المغزل رأسه (٢) المكاكى نوع من الطيور والسلاف الخمر والمفلفل المخلوط بالفلفل (٣) الانبوش الاصل والعنصل البصل البرى (٤) جمع حدج وهو مركب النساء والخلايا العظام والنواصف المتسعات ودد واد عظيم (٥) نسبة الى عدول قبيلة بالبحرين وابن يامن رجل (٦) الحباب الامواج والحيزوم الصدر والمفايل لاعب الفيال

وتبسم عن ألمى كأن منورا   تخلل حر الرمل دعص له ندى (١)
سقته أياة الشمس الا لثاته   أسف ولم تكدم عليه بإثمد (٢)
ووجه كأن الشمس ألقت رداءها   عليه نقى اللون لم يتخدد (٣)

وكل ذلك لم يكن له بالمقصود فقد مر عليه مرا قضاء لحق انطالع عند العرب ثم انتقل الى ما يريد وأوله وصف الناقة فسلخ فيه أربعة وثلاثين بيتا لم يترك شيئا من أوصافها الحسية الا وفاه بدقة وحسن أداء ولا من ضروب سيرها نوعا الا أجراه فى لباقة ورصف كلام وكان آخر ما أفرغ عليها من صفة جعله اياها أداة نجدته للمستصرخين ولو لم يقصدوه قال

على مثلها أمضى اذا قال صاحبي   ألا ليتنى أفديك منها وأفتدى
وجاشت اليه النفس خوفا وخاله   مصابا ولو أمسى على غير مرصد
اذا القوم قالوا من فتى خلت أننى   عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

ثم ذكر سيرها وشبهها متبخترة فيه بالوليدة ترى ربها أذيال ثوبها الطويل فكان التشبيه الثالث والعشرين فى الناقة مما انفرد به دون سائر الشعراء ومن ثم عد من وصافى الابل المبرزين وقد وصل هذه المفخرة التى انتهى اليها فى هذا الوصف بمفاخر تنبىء عن صفاته وأحواله فذكر أنه فوق نجدته وطيب أرومته تلقاه فى حلقة السادة إذ تكون المقامة كما تصطاده فى حوانيت اللاهين حين اللهو قد توسط مداماه ومعه قينة تغنيهم وأن عشيرته لذلك قد تحامته ولكن ذلك التحامى لم يطعن فى بقائه معروفا للجميع قال

---

(١) الالمى الضارب الى السواد والمنور الاقحوان والدعص الكثيب
(٢) أياة الشمس شعاعها والكدم العض والاسفاف الخلط (٣) التخدد التشقق.

فان تبغني في حلقة القوم تلقني   وان تلتمسني في الحوانيت تصطد
نداماى بيض كالنجوم وقينة   تروح الينا بين برد ومجسد (١)
رحيب قطاب الجيب منها رفيقة   بجس الندامي بضة المتجرد (٢)
اذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا   على رسلها مطروقة لم تشدد (٣)
اذا رجعت في صوتها خلت صوتها   تجاوب أظآر على ربع ردى (٤)
ومازال تشرابي الخمور ولذتي   وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى
الى أن تحامتنى العشيرة كلها   وأفردت إفراد البعير المعبد (٥)
رأيت بني غبراء لا ينكرونني   ولا أهل هذاك الطراف الممدد (٦)

فهذه نفسية طرفة اللاهى حللها لنا في هذه الأبيات وأخذ بعدها يلوم من يزجره أن يحضر الوغى ويشهد اللذات مادام لا يستطيع عنه دفع المنون ويذكر أن العيش لثلاث الخمر والنجدة والنساء ومن حرمها كان بخيلا لا يلبث أن يترك ماله ويموت فلا يكون لقبره فضل على قبور الكرماء وهذا بعض ماقال

أرى قبر نحام بخيل بماله   كقبر غوى في البطالة مفسد (٧)
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى   عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة   وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى   لكالطول المرخى وثنياه في اليد (٨)
متى مايشأ يوما يقده لحتفه   ومن يك في حبل المنية ينقد

---

(١) المجسد مايلي الجسد أو ماصبغ بالجساد وهو الزعفران (٢) أقطاب الجيب مخرج الرأس منه (٣) المطروقة الضعيفة (٤) الاظآر ذوات الولد والربع ابن الربيع (٥) المعبد المطلي بالقطران (٦) الغبراء الارض وبنوها الفقراء والطراف البيت (٧) النحام السعال سمى به البخيل لانه يكثر سعاله اذا طلب منه شيء (٨) الطول الحبل الذي يطال للدابة لترعى

ومن هنا خرج الى مالك ابن عمه يعاتبه على لومه اياه فى طلبه حمولة أخيه معبد واستعانته به فى الطلب مع أنه فعل ذلك تقربيا للقربى مع قدرته على مقابلة الجميل بجميل وفى هذا فاضت عاطفته بما نترك التعبير له حيث يقول

فلو كان مولاى امرأ هو غيره   لفرج كربى أو لانظرنى غدى
ولكن مولاى امرؤ هو خانقى   على الشكر والتسآل أو انا مفتدى
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند
فذرنى وخلقى إننى لك شاكر   ولو حل بيتى نائيا عند ضرغد (١)
فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد   ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد
فأصبحت ذا مال كثير وزارنى   بنون كرام سادة لمسود

على أنه لم يلبث أن سرى عن نفسه فاخرا بقوته وشجاعته وفتكه واغارته بأبيات يقول فى أولها

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه   خشاش كرأس الحية المتوقد (٢)

وفى آخرها على لسان من يقصد ابله فيغتصب منها ماشاء فيدعه خوفا منه وفرقا

وقال ذروه انما نفعها له   والا تكفوا قاصى البرك يزدد (٣)

ذاك نحره بنفسه ومن كان هذا شأنه كان جديرا اذا مات أن يبكى ولذلك ساق القول بعد الى ابنة عمه طالبا منها أن تنعاه بما هو أهله قال

فان مت فانعينى بما أنا أهله   وشقى على الجيب ياابنة معبد
ولا تجعلينى كامرى ليس همه   كهمى ولا يغنى غنائى ومشهدى

ثم أخذ يجمل لها صفاته الى أن اختتم المعلقة بهذه الابيات الثلاثة الخالدة

---

(١) ضرغد اسم جبل ناء (٢) الضرب الخفيف الجسم والخشاش الدخال (٣) البرك الابل .

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى　　بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد
ستبدى لك الايام ما كنت جاهلا　　ويأتيك بالاخبار من لم تزود
ويأتيك بالاخبار من لم تبع له　　بتاتا ولم تضرب له كف موعد

هذه معلقة طرفة وهى على ما رأيت منها شديدة الاسر قوية المعنى جيدة التشبيه ذات أمثال سائرة وحكم بالغة ولذلك اعتبرت أجود المعلقات. ولو كان لطرفة من الشعر ما يقارب فى الكثرة شعر الاربعة المقدمين امرىء القيس وزهير والنابغة والاعشى لوضع معهم كما قال أبو عبيدة أو لفضلهم جميعا كما قال الكثيرون من الشعراء والرواة والادباء

٣ — معلقة زهير

لم يسق زهير معلقته كما ساق زميلاه السابقان معلقتيهما لغير ما سبب ظاهر سوى حفزة الشعر القاهرة تعبيرا عما فى النفس من ضروب الاحاسيس والوجدانات بل قالها فى غرض معين هو مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف على تداركهما عبسا وذبيان بالصلح بينهما فى حرب داحس والغبراء وتحملهما فى ذلك على غير جناية منهم الكثير من الديات وتلك يد تقاس عظمتها بما كان لتلك الحرب من شيوع ذكر وطول زمان ولكنه لم يجردها فى ابتدائها من ذكر الدمن والاطلال ووصف الظعائن اذا تحملن للاسفار فقد وقف على الدمن وأطال هذا الوصف فأجاد ووقع له من خيار التشبيهات تشبيهان حيث يقول

بكرن بكورا واستحرن بسحرة　　فهن ووادى الرس كاليد للفم
فلما وردن الماء زرقا جمامه　　وضعن عصى الحاضر المتخيم
كأن فتات العهن فى كل منزل　　نزلن به حب الفنا لم يحطم(١)

---

(١) العهن الصوف والفنا عنب الذئب

ثم تركهم مقيمين الى ما أراد من تسجيل يد هرم وعوف فقال

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعد ما تبزل ما بين العشيرة بالدم(١)
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم(٢)
تداركتما عبسا وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم(٣)
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظمين فى عليا معد هديتما ومن يستبح كنزا من المجد يعظم

وبعد أن أفاض فيما احتمله هذان السيدان من مغارم أصبحت مغانم لذوى الديات انتقل الى المتحالفين يسألهم الاخلاص للصلح ويحذرهم مغبة الحرب واصفا سوء عواقبها وهو خير ماقيل فيها قال

ألا أبلغ الاحلاف عنى رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم
فلا تكتمن الله مافى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم
وما الحرب الا ماعلمتم وذقتم وماهو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضرى اذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم (٤)

---

(١) تبزل اشتد واختلط (٢) السحيل المفتول على قوة واحدة والمبرم المفتول على اثنتين (٣) منشم امرأة تبيع عطر التحالف أو رجل يبيع حنوط الميت (٤) ثفال الرحى مايبسط تحتها ليقع عليه الطحين وتلقح كشافا تحمل مرتين فى السنة والاتئام ولادة توأمين

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم   كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم (١)
فتغلل لكم مالا تغل لأهلها   قرى بالعراق من قفيز ودرهم (٢)

ولم يفته فى هذا المقام أن يعيب على حصين بن ضمضم تخلفه عن الصلح على نية الاخذ بثأر أخيه وأن يحمد لمن ثأر فيهم على بعد الوتر منهم قبولهم الدية احتراما للصلح دون أن يجاروه القتال كما لم يفته أن يذكر قصد حصين على قوته وشدة بطشه وذلك قوله

لعمرى لنعم الحى جر عليهم   بما لا يواتيهم حصين بن ضمضم
وكان طوى كشحا على مستكنة   فلا هو أبداها ولم يتقدم
وقال سأقضى حاجتى ثم أتقى   عدوى بألف من ورائى ملجم
فشدوا لم يفزع بيوتا كثيرة   لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم (٣)
لدى أسد شاكى السلاح مقذف   له لبد أظفاره لم تقلم
جرىء متى يظلم يعاقب بظلمه   سريعا والا يبد بالظلم يظلم

وكأن زهيرا صفت نفسه وقد عالج هذا كله فأمدته روحانيته بتلك الحكم الفذة الكثيرة التى ختم بها معلقته فكانت فى بابها أبلغ دليل على أن الفطرة إذا صفت أدركت مايقف العقل أمامه حائرا لا يدرى كيف كان لها اليه السبيل وهاهى ذى

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانين حولا لا أبالك يسأم
وأعلم علم اليوم والامس قبله   ولكننى عن علم مافى غد عمى

---

(١) المراد بأحمر عاد أحمر ثمود لأنه العاقر (٢) يقصد بقوله من قفيز ودرهم أن الدراهم تكال بالقفيز (٣) أم قشعم المنية والقشعم النسر يأتى وراءها ليأكل من القتلى

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وان يرق أسباب السماء بسلم
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يعص أطراف الزجاج فانه ... يطيع العوالى ركبت كل لهذم(١)
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه ... يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه ... الى مطمئن البر لا يتجمجم (٢)
ومن يجعل المعروف فى غير أهله ... يكن حمده ذما عليه ويندم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ... ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة ... وان خالها تخفى على الناس تعلم
وكائن ترى من صامت لك معجب ... زيادته أو نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق الا صورة اللحم والدم

٤ - معلقة لبيد

جاءت معلقة لبيد قطعة صادقة فى تصوير البادية أصدق تصوير من النواحى التى قصد اليها فانه بدأها بذكر الدمن فى عفائها وكيف تحولت الى مراعى عشب ونبات ومراتع ظباء ونعام ولكنها مع هذا قد جلت أطلالها السيول فوقف يسألها وبقيت هى صما خوالد لا تبين فجاوزها الى تذكر أهلها الراحلين

---

(١) الزجاج جمع زج وهى الحديدة فى أسفل الرمح واللهذم السنان فى عاليته

(٢) التجمجم التزحزح .

وأخذ يصف الظعن ويتذكر نوار ولكنه عاد يقول لنفسه وما تتذكر من نوار وقد نأت الى ديار لاأمل مع بعدها فى لقاء

ومن جميل التشبيه فى بعض ماتقدم قوله :

وجلا السيول عن الطلول كأنها   زبر تجد متونها أقلامها (١)

أو رجع واشمة أسف نؤورها   كففا تعرض فوقهن وشامها(٢)

وقد أخذ على نوار ايغالها فى رحلتها وأعلن عزمه على قطع لبانتها بأبياته التى يقول فيها

فاقطع لبانة من تعرض وصله   ولشر واصل خلة صرامها

واحب المجامل بالجزيل وصرمه   باق اذا ظلعت وزاغ قوامها (٣)

بطليح أسفار تركن بقية   منها فأحنق صلبها وسنامها (٤)

ثم اندفع يصف الناقة ويطيل ولكنه حاد عن جعل الوصف فى جسمها فجعله فى سيرها وأخذ يشبهها فى سرعتها تارة بالسحابة الجهام تطردها ريح الجنوب وأخرى بأتان ملمع حملت من أحقب غيور وامتنعت عليه فرابه أمرها وعلا بها حدب الآكام حتى اذا سلخا الشتاء بعيدين عن الماء وهبت ريح الصيف اشتد بهما الظمأ ففزعا الى الورود وانحدرا الى النهر انحدارا كان له غبار كدخان نار أوقدت اليابس والرطب من النبات . وثالثة ببقرة وحشية أكل السبع فريرها فأخذت تبحث عنه سبعا كاملة الايام حتى اذا يئست وجف

---

(١) جمع زبور وهو الكتاب والمتون السطور (٢) النئور النقس المتخذ من دخان السراج والنار والنقس المداد (٣) الكفف بكسر الكاف جمع كفة بالكسر وهى الدارة وكل مستدير وبالضم جمع كفة مضمومة لكل مستطيل وأسف ذر وتعرض ظهر (٤) ظلعت عرجت بقصد الصحبة والطليح المعيي وأحنق ضمر

ضرعها أحست صوت رماة أرسلوا خلفها الكلاب فكان لها عدو للنجاة شديد فذلك حيث يقول

واذا تغالى لحمها وتحسرت ... وتقطعت بعد الكلال خدامها (١)
فلها هباب فى الزمام كأنها ... صهباء خف مع الجنوب جهامها (٢)
أو ملمع حملت لأحقب لاحه ... طرد الفحول وضربها وكدامها (٣)
يعلو بها حدب الآكام مسحج ... قد رابه عصيانها ووحامها (٤)

إلى آخر ما قال فى الأتان ثم أعقبه بقوله فى البقرة

أفتلك أم وحشية مسبوعة ... خذلت وهادية الصوار قوامها (٥)
خنساء ضيعت الفرير فلم يرم ... عرض الشقائق طوفها وبغامها (٦)
علهت تردد فى نهاء صعائد ... سبعا تؤاما كاملا أيامها (٧)
حتى اذا يئست وأسحق حالق ... لم يبله ارضاعها وفطامها (٨)
وتوجست رز الانيس فراعها ... عن ظهر غيب والانيس سقامها (٩)
فغدت كلا الفرجين تحسب أنه ... مولى المخافة خلفها وأمامها (١٠)

وبعد هذه الاطالة فى وصف الناقة وسيرها أخذ يفتخر على النوار بأنه قضاء

---

(١) تغالى ارتفع والخدام جمع خدمة وهى السير (٢) الهباب النشاط والصهباء السحابة الحمراء (٣) الملمع الأتان المشرقة أطباؤها باللبن ووسقت حملت والاحقب العير فى وركيه بياض ولاحه غيره (٤) المسحج المخدش من العض (٥) المسبوعة التى أكل السبع ولدها الذى خذلته بتركه واتباع مقدم الصوار وهو القطيع (٦) الفرير الولد ولم يرم لم يبرح والبغام الصوت (٧) علهت انهمكت وصعائد موضع ونهاؤه غدرانه واحدها نهى (٨) الحالق الضرع وأسحق ذهب لبنه بجفافه (٩) الرز الصوت (١٠) مولى المخافة موضعها

لبانات وصال قطاع يعاف مالا يرضى من الديار وأنه سمار ليال غلاء سباء وزاع لغدوات الشمال وأنه يحمى الحى فيرتقى بفرسه المرتفعات فى منبلج الصباح فاذا ما أمسى أسهل وفرسه لايزال منتصبا للحراسة فى البيات وأنه مع هذا حلال مشكلات فى المجامع والمقامات نحار بالقداح لجزور الايسار يدعو بهن لذوى الحاجات والضيفان ممن يأوون الى أطنابه فيجدون الخصب والثراء وهذا بعض ماقال

فبتلك اذ رقص اللوامع بالضحى … واجتاب أردية السراب أكامها (١)
أقضى اللبانة لاأفرط ريبة … أو أن يلوم بحاجة لوامها
أو لم تكن تدرى نوار بأننى … وصال عقد حبائل جذامها
تراك أمكنة إذا لم أرضها … أو يعتلق بعض النفوس حمامها
أغلى السباء بكل أدكن عاتق … أوجونة قدحت وفض ختامها (٢)
وغداة ريح قد وزعت وقرة … قد أصبحت بيد الشمال زمامها (٣)
ولقد حميت الحى تحمل شكتى … فرط وشاحى إذا غدوت لجامها (٤)
وكثيرة غرباؤها مجهولة … ترجى نوافلها ويخشى ذامها (٥)
أنكرت باطلها وبؤت بحقها … عندى ولم يفخر على كرامها
وجزور أيسار دعوت لحتفها … بمغالق متشابه أجسامها (٦)

---

(١) يقصد لوامع السراب واجتاب الآكام أرديته لبسها أى احتدمت الهواجر (٢) السباء شراء الخمر والادكن العاتق وصفان للزق والجونة الخابية السوداء وقدحت ملئت منها القداح (٣) وزعت دفعت بالنحر (٤) الفرط الفرس المتقدمة السريعة (٥) يقصد الدار تقوم فيها المقامة (٦) الايسار أصحاب الميسر واحدهم يسر والمغالق السهام واحدها مغلاق

أدعو بهن لعاقر أو مطفل　　بذلت لجيران الجميع لحامها

فالضيف والجار الجنيب كأنما　　هبطا تبالة مخصبا أهضامها

ذاك فخره بنفسه وقد أعقبه فخره بقومه ينسبهم الى سيادة المحافل وحسن سياسة العشيرة وأن تلك سجايا فيهم يجدر بالحاسد ألا يطمع فيها لانها حباء لهم من المليك لما جبلوا عليه من معالى الامور قال

إنا اذا التقت المجامع لم يزل　　منا لزار عظيمة جشامها (١)

ومقسم يعطى العشيرة حقها　　ومغذ مر لحقوقها هضامها (٢)

فضلا وذو كرم يعين على الندى　　سمح كسوب رغائب غنامها

من معشر سنت لهم آباؤهم　　ولكل قوم سنة وامامها

لايطبعون ولا يبور فعالهم　　إذ لايميل مع الهوى أحلامها

ثم التفت يخاطب الطامع فى مثل مكانتهم بقوله

فاقنع بما قسم المليك فانما　　قسم الخلائق بيننا علامها

وإذا الامانة قسمت فى معشر　　أوفى بأوفر حظنا قسامها

فبنى لنا بيتا رفيعا سمكه　　فسما اليه كهلها وغلامها

إلى أن ختم المعلقة بأبيات أخر يجمل فيها ماعرفوا به من مكارم الاخلاق .

ه — معلقة عمرو بن كلثوم

خالف عمرو رجال المعلقات فلم يبدأ معلقته بذكر الدمن والديار وتعرف الآثار والاطلال انما بدأها بوصف الخمر وتأثيرها والدعوة الى الاستصباح بها وانتهابها ولكنه لم ينس أن يستوقف الظعينة قبل التفرق لتخبره هل أحدثت

---

(١) لزاز العظيمة قرينها (٢) المغذ مر الغضوب لاجل حقوق العشيرة الهضام لحقوق نفسه

صرما وقطعا ويخبرها بما له أيام الكريهة من بلاء يقر العيون ثم أخذ يصف وجوه محاسنها ووجده بفراقها فى أبيات طويلة أنهى بها تشبيب قصيدته قال فى مبدئها

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الاندرينا (١)
مشعشعة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا (٢)

وقال

قفى قبل التفرق ياظعينا نخبرك اليقين وتخبرينا
قفى نسألك هل أحدثت صرما لو شك البين أم خنت الامينا

وقال

تريك اذا دخلت على خلاء وقد أمنت عيون الكاشحينا
ذراعى عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا (٣)

إلى آخر ما وصف ثم قال

فما وجدت كوجدى أم سقب أضلته فرجعت الحنينا (٤)
ولا شمطاء لم يترك شقاها لها من تسعة الا جنينا

وبعدئذ خرج الى الغرض الذى من أجله قرض المعلقة وهو التفاخر بقتله عمرو بن هند فى حادث يذكر له الرواة قصصا وحكايات ولا يعدو عندى أن يكون هذا القتل وقع باتفاق بينه وبين البيت المالك لما كان من طول الحكم لعمرو

---

(١) الاندرون قرى بالشام (٢) المشعشعة المزوجة والحص نبت أحمر النور (٣) العيطل الطويلة العنق من النوق والادمة فى الابل البياض و كذا الهجنة ولم تقرأ لم تحمل (٣) السقب ولد الناقة قبل فصاله

وشدة عسفه بأهله ولذلك أسدلوا الستار عليه فلم يشنوا حربا ولم يطالبوا بثأر وانما اختير ابن كلثوم لأنه رئيس تغلب وكثيرا ما غاضبها ابن هند وظاهر بكرا عليها كما حدث بعد سماعه معلقة ابن حلزة على ما سيأتى فى بعض ما كان بينهما من خلاف على أنى اذا لم أجزم بهذا الاتفاق فلا أقل من أن أقول لقد وقع القتل على قلوب المناذرة بردا وسلاما وبخاصة صاحب التاج من بعده وهو أخوه النعمان هذا وقد بدأ ابن كلثوم فخره بمخاطبة الملك القتيل سخرية وتهكما خطابا يذكره فيه بأيام لهم غر طوال وبقدمهم منذ القدم فى الحروب وعركهم من يتعرض لهم وحمايتهم من يستجير بهم وأنهم لم يعادلوه بغير ماعاملوا به الملوك من عصيان وخروج منذ أيام خزازى الى حيث قتلوه وكان ذلك منه فى أكثر من خمسين بيتا هذا بعضها

أبا هنـد فـلا تعجل علينا　　وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضـا　　ونصدرهن حمرا قـد روينا
وأيام لنا غر طوال　　عصينا الملك فيها أن ندينا

إلى أن قال

متى ننقل الى قوم رحانا　　يكونوا فى اللقاء لها طحينا
يكون ثفالهـا شرقى نجـد　　ولهوتها قضاعة أجمعينا (١)

والى أن قال

ألا لايعـلم الاقوام أنا　　تضعضعنا وأنا قدونينا
ألا لايجهلن أحـد علينـا　　فنجهل فوق جهل الجاهلينا

---

(١) ثفال الرحى مايبسط تحتها ولهوتها القبضة من الحب تلقى فيها

بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا (١)
بأى مشيئه عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وتوعدنا رويدا متى كنا لامك مقتوينا (٢)
فان قناتنا ياعمرو أعيت على الاعداء قبلك أن تلينا
اذا عض الثقاف بها اشمأزت وولته عشوزنة زبونا (٣)
عشوزنة إذا انقلبت أرنت تشج قفا المثقف والجبينا

ثم أخذ يفخر برجالهم الاقدمين ويعدد مآثرهم وأيامهم مشركا معهم بنى عمهم بكر ولكنه لم يرض أن يكونوا مثلهم فى هذه المفاخر قال

ونحن غداة أوقد فى خزازى رفدنا فوق رفد الرافدينا (٤)
وكنا الايمنين اذا التقينا وكان الايسرين بنو أبينا
فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

ومن هنا أخذ يفخر على بكر ويذكرهم بما كان لهم عليهم من غلاب وقد أجاد حيث يعالج ذلك وصف الدروع والنساء وراء الخيل يوم الروع قال

علينا كل سابغة دلاص ترى فوق النطاق لها غضونا (٥)
اذا وضعت عن الابطال يوما رأيت لها جلود القوم جونا
كأن غضونهن متون غدر تصفقها الرياح اذا جرينا

---

(١) القطين الخدم (٢) المقتوون جمع مقتوى بطرح ياء النسبة نسبة الى المقتى وهو المصدر الميمى لقتا يقتو اذا خدم الملوك (٣) العشوزنة الصلبة الشديدة والزبون الدفوع (٤) خزازى جبل ويقصد يوما كان عنده بين نزار ويمن (٥) السابغة الدرع التامة والدلاص البراقة والغضون التشجنات جمع غضن

وتحملنا غداة الروع جرد | عرفن لنا نقائد وافتلينا (١)
على آثارنا بيض حسان | نحاذر أن تقسم أو تهونا
أخذن على بعولتهن عهدا | إذا لاقوا كتائب معلمينا
ليستلبن أفراسا وبيضا | وأسرى فى الحديد مقرنينا
إذا مارحن يمشين الهوينى | كما اضطربت متون الشاربينا
يقتن جيادنا ويقلن لستم | بعولتنا إذا لم تمنعونا
اذا لم نحمهن فلا بقينا | لشيء بعدهن ولا حيينا

ذالك فخره وقد رأى أن يدعمه بأنه معروف لقبائل معد فكلها تعترف لهم يوم الفخار بكرمهم وفتكهم وعزتهم وإبائهم ومن ثم عاد الى مثل ما بدأ به مع ابن هند فكان ختام المعلقة قال

وقد علم القبائل من معد | اذا قبب بأبطحها بنينا
بأنا المطعمون اذا قدرنا | وأنا المهلكون اذا ابتلينا
وأنا المانعون لما أردنا | وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا التاركون اذا سخطنا | وأنا الآخذون اذا رضينا
وأنا العاصمون اذا أطعنا | وأنا العارمون اذا عصينا(٢)
ونشرب ان وردنا الماء صفوا | ويشرب غيرنا كدرا وطينا

ثم قال

اذا ما الملك سام الناس خسفا | أبينا أن نقر الذل فينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها | ونبطش حين نبطش قادرينا
اذا بلغ الرضيع لنا فطاما | تخر له الجبابر ساجدينا

(١) النقائذ ما أنقذت من أيدي الاعداء وافتلاؤها إفلادها (٢) العارمون ذوو العرام وهو الحدة

٦ — معلقة عنترة

جاءت معلقة عنترة لغير غرض خاص كما جاءت معلقات امرىء القيس وطرفة ولبيد وقد بدأها بما بدءوا به فوقف على الاطلال وخاطب الديار كما هى سنة الشعراء ثم أبان أنه يخاطب دار عبلة وأخذ يستوحيها الجواب ويصف صاحبتها قال

يادار عبلة بالجواء تكلمى ‏ ‏ ‏ ‏ وعمى صباحا دار عبلة واسلمى(١)
دار لآنسة غضيض طرفها ‏ ‏ ‏ ‏ طوع العناق لذيذة المتبسم

وعاد ثانية يستوقف الناقة على طلل عبلة ويحييه ويستبعد الديار التى حلت بها ويعجب كيف يكون المزار ثم خلص من هذا الى وصف ما لعبلة من حسن ثغر وطيب مقبل فأجاد قال

إذ تستبيك بذى غروب واضح ‏ ‏ ‏ ‏ عذب مقبله لذيذ المطعم (٢)
وكأن فأرة تاجر بقسيمة ‏ ‏ ‏ ‏ سبقت عوارضها اليك من الفم(٣)
أو روضة أنفا تضمن نبتها ‏ ‏ ‏ ‏ غيث قليل الدمن ليس بمعلم(٤)
جادت عليه كل بكر حرة ‏ ‏ ‏ ‏ فتركن كل قرارة كالدرهم
سحا وتسكابا فكل عشية ‏ ‏ ‏ ‏ يجرى عليها الماء لم يتصرم
وخلا الذباب بها فليس ببارح ‏ ‏ ‏ ‏ غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه ‏ ‏ ‏ ‏ قدح المكب على الزناد الاجذم(٥)

وبعد هذا التشبيه الطويل عاد الى عبلة يذكر تنعمها على الوثير من الفراش

---

(١) الجواء موضع بعينة (٢) الغروب جمع غرب وهو الحد (٣) فأرة المسك آنيته لانه يفور منها والقسيمة الحسنة التقاسيم (٤) الانف التى لم ترع وتضمن سقى (٥) هزجا مصوتا والاجذم الناقص اليد

بينما هو على سرج فرسه وأخذ يتمنى أن تبلغه اياها شدنية غير ولود وانساق يصف هذه الناقة ويشبهها بالظليم تأوى له قلص النعام كأنه العبد الاصلم ذو الفرو الطويل وما أبين قوله إذ يذكر اندفاعها فى سيرها

وكأنما تنأى بجانب دفها الـ ـوحشى من هزج العشى مؤوم(١)

هر جنيب كلما عرضت له غضبى اتقاها باليدين وبالفم

وما انتهى من صفة الناقة حتى أوغل فيما هو قصده فى معلقته من ذكر فروسيته وبطولته وبدأه بقوله لعبلة لا تغدفى دونى القناع فان من يأخذ الفارس المستلئم مثلى جدير أن يحوزك وينال منك الثناء بما هو أهله فانى سمح المخالطة مر المذاقة شراب مدام لا يمنع الصحو كرمي ولا تنال النشوة عرضى

فاذا شربت فاننى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم

واذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

وهذا معنى لم يجار فيه وقد أخذ بعده يعدد مواقف بطولته فيقول كم من حليل غانية ولا يحل لها الا البطل قد جندلته ومدجج كره الكماة نزاله قد طعنته وحامى حقيقة معلم بمهندى قد علوته ولم ينس فى هذه المواقف الثلاثة من حماسته أن يخلطها بنسيبه فى عبلة كما هو دأبه. قال فى أولها

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمى

يخبرك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ويقول فى نهايتها

ياشاة ماقنص لمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم

---

(١) الدف الجنب والوحشى الايمن لانه لا يركب منه. والمؤوم القبيح الرأس

فبعثت جاريتى فقلت لها اذهبي   وتجسسى أخبارها لى واعلمى
قالت رأيت من الاعادى غرة   والشاة ممكنة لمن هو مرتمى
وكأنما التفتت بجيد جداية   رشأ من الغزلان حر أرثم (١)

وعاد من هذا الى ذكر مواقفه ناعيا على من لايشكر نعمته جحود فضله وذاكرا أنه حريص على وصاة عمه بالثبات فى أحرج المضايق فكان منه فى الكلام عن فرسه هنا ابداع ليس بعده منال قال

لما رأيت القوم أقبل جمعهم   يتذامرون كررت غير مذمم (٢)
يدعون عنتر والرماح كأنها   أشطان بئر فى لبان الادهم (٣)
مازلت أرميهم بثغرة نحره   ولبانه حتى تسربل بالدم
فازور من وقع القنا بلبانه   وشكا إلى بعبرة وتحمحم (٤)
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى   ولـكان لو علم الـكلام مكلمى

وزاد ذلك منه نبلا وكرما أن جعل فى نداء الفوارس له بالاقدام فى الشدائد مايشفى نفسه ويبرىء سقمه قال

ولقد شفى النفس وأبرأ سقمها   قيل الفوارس ويك عنتر أقدمى

ثم ختم المعلقة بخشيته الموت قبل أن ينال من ابنى ضمضم لتوعدهما اياه بعد قتله أباهما قال

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر   للحرب دائرة على ابنى ضمضم (٥)
الشاتمى عرضى ولم أشتمهما   والناذرين اذا لم آلقهما دمى
إن يفعلا فلقد تركت أباهما   جزر السباع وكل نسر قشعم (٦)

---

(١) الجداية ولد الظبية والرشأ القوى والارثم الذى فى شفته العليا وأنفه بياض (٢) يتذامرون يتحاضون على القتال (٣) أشطان البئر حباله واللبان الصدر (٤) ازور مال وتحمحم الفرس صهيله بحنين (٥) هما حصين وهرم (٦) القشعم المسن

٧ — معلقة الحارث ابن حلزة

قيلت هذه المعلقة لغرض خاص هو استمالة عمرو بن هند الى بكر والحارث منها فى مقاضاة كانت عنده بينها وبين تغلب قوم عمرو بن كلثوم قاتل ابن هند كما سبق وقد احتذى حذو الشعراء فى بدئها فأبدى تحرقه على بين أسماء وأخذ يذكر عهدها السالف ومكانها النائى فيبكى وما يحير البكاء قال

آذنتنا ببينها أسماء   رب ثاو يمل منه الثواء
بعد عهد لنا ببرقة شما   ء فأدنى ديارها الخلصاء (١)
لاأرى من عهدت فيها فأبكى الـ   ـيوم دلها وما يحير البكاء (٢)

وأردف ذلك بذكر الناقة يستعين بها على الهم ويصفها وقد بلغ فى ذلك ماأراد فى ايجاز وحسبك قوله

غير أنى قد أستعين على الهـ   ـم اذا خف بالثوى النجاء (٣)
بزفوف كأنها هقلة أم   م رئال دوية سقفاء (٤)
آنست نبأة وأفزعها القنـ   ـناص عصرا وقد دنا الامساء
فترى خلفها من الرجع والوقـ   ـع منينا كأنه أهباء (٥)

ومن هنا انتقل الى موضوع المعلقة فبدأ يصف ظلم بنى عمهم إياهم وتبييتهم لهم الشر وقد أجاد فى وصف التهيؤ للحرب ماشاءت له الاجادة حيث يقول

---

(١) العهد اللقاء (٢) الدله ذهاب العقل ومايحير مايرجع (٣) الهم مايهم به
(٤) الزفوف السريعة والهقلة النعامة والدوية نسبة الى الدو وهو الصحراء والسقفاء الطويلة مع انحناء (٥) المنين الغبار الرقيق والاهباء جمع هباء وهو ماتطاير وانبث

وأتانا من الحوادث والأنـ ـباء خطب نعنى به ونساء
أن اخواننا الاراقم يغلو ن علينا فى قيلهم إحفاء (١)
يخلطون البرئ منا بذى الذ نب ولا ينفع الخلى الخلاء
زعموا أن كل من ضرب العـ ـير موال لنا وأنا الولاء (٢)
أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصـ ـهال خيل خلال ذاك رغاء

ثم أخذ يخاطب من وشى بهم الى عمرو بن هند بأنهم واثقون من عدل الملك على أنهم غير خائنين وقديما وشى بهم فكانت ما نعتهم حصونهم وهذا إذ يقول

أيها الناطق المرقش عنا عند عمرو وهل لذاك بقاء (٣)
ملك مقسط وأفضل من يمـ ـشى ومن دون ما لديه الثناء (٤)
لا تخلنا على غراتك إنا قبل ما قد وشى بنا الأعداء (٥)
فبقينا على الشناءة تنمـ ـينا حصون وعزة قعساء (٦)

وأتبع هذا بأنهم مع قدرتهم ذوو أهبة لقبول أية خطة فى الصلح تراد وأنهم أكفاء لمقابلة ما يطلب منهم بمثله وأخذ يذكر ماضيهم تأييداً لما يقول قال

أيما خطة أردتم فأدو ها الينا تمشى بها الأملاء (٧)

وبعد أن بين أنواع الخطط فى أبيات له أعقبها بقوله

هل علمتم أيام ينتهب النا س غوارا لكل حى عواء (٨)

---

(١) الاراقم لقب لبطون من تغلب والاحفاء الالحاح (٢) العير هنا السيد والمراد كليب وضربه الرضا بقتله وقوله وأنا الولاء أى أصحاب الولاء (٣) المرقش المريب المشكك (٤) المقسط العادل والقاسط الجائر (٥) الغراة الاغراء (٦) تنمينا ترفعنا (٧) الأملاء جماعات الاشراف جمع ملأ (٨) الغوار المغاورة

إذ ركبنا الجمال من سعف البحـ   رين سيرا حتى نهاها الحساء
ثم ملنا على تميم فأحرمـ   نا وفينا بنات مر إماء (١)
لا يقيم العزيز بالبلد السـ   ـل ولا ينفع الذليل النجاء

ثم عاد الى المبلغ عنهم ثانية يذكره بأن لهم على عمرو بن هند ثلاث آيات آية ردهم قيس بن معديكرب الحميرى عنه وقد غزا الحيرة فى معدكلها وكذا حجر بن أم قطام وقد غزاها أيضا فى فارسية خضراء . وآية فكهم غل امرىء القيس اللخمى من الغساسنة وإقادتهم بأبيه المنذر إذ قتلوه من ربهم والثالثة أنه ابن اختهم فأمه منهم وهم قد ولدوه وفى ذلك يقول

أيها الناطق المبلغ عنا   عند عمرو وهل لذاك انتهاء
من لنا عنده من الخير آيا   ت ثلاث فى كلهن القضاء
آية شارق الشقيقة إذ جا   ءوا جميعا لكل حى لواء (٢)
حول قيس مستلئمين بكبش   قرظى كأنه عبلاء (٣)
فرددناهم بطعن كما يخـ   ـرج من خربة المزاد الماء (٤)
ثم حجرا أعنى ابن أم قطام   وله فارسية خضراء (٥)
وفككنا غل امرىء القيس عنه   بعد ماطال حبسه والعناء (٦)

---

(١) أحرمنا دخلنا فى الاشهر الحرم (٢) الشقيقة أرض صلبة بين رملتين وشارق مضىء وهى من اضافة الصفة الى الموصوف والمراد اسم مكان كانت به الموقعة (٣) يريد قيس بن معديكرب الملك الحميرى والكبش السيد والقرظى كناية عن أنه شديد الوطأة لان القرظ شجر يدبغ الاديم والعبلاء الهضبة البيضاء (٤) المزاد الزقاق وخربتها ثقبها (٥) هو والد امرىء القيس (٦) يقصد أحد اللخميين لا امرأ القيس بن حجر

وأقدناه رب غسان بالمنـ ـذر كرها إذلا تكال الدماء (١)

وولدنا عمرو بن أم أياس ـن قريب لما أتانا الحباء (٢)

ثم عاد الى تغلب يطلب اليهم أن يتركوا التكابر والتعامي ويذكروا حلف ذى المجاز وماقدم فيه من عهود وكفله من كفلاء حذر الجور والتعدى مثل ما يذكرون ثم قال

فاتركوا الطيخ والتعاشى وإما تتعاشوا ففى التعاشى الداء (٣)

واذكروا حلف ذي المجاز وماقد دم فيه العهود والكفلاء (٤)

حذر الجور والتعدى وهل ينقض مافى المهارق الاهواء (٥)

واعلموا أننا وإياكم فيـ ـما اشترطنا يوم اختلفنا سواء

وبعدئذ أخذ يعيرهم بجنايات غيرهم عليهم وأنه لا يجمل بهم أن يحملوهم جرمهم فيقول

أعلينا جناح كندة أن يغـ ـنم غازيهم ومنا الجزاء

وهكذا أكثر التعداد حتى ختم المعلقة بتغلبهم عليهم يوم الحيارين كيلا يظنوا فيهم ضعفا أو أنهم ليسوا كهؤلاء مستشهدا على ذلك اليوم بالرب وهو الملك حيث يقول

وهو الرب والشهيد على يو م الحيارين والبلاء بلاء (٦)

---

(١) رب غسان ملكها (٢) الحباء المهر (٣) الطيخ التكبر والتعاشى التعامى (٤) ذو المجاز موضع أصلح فيه عمرو بن هند بين بكر وتغلب (٥) جمع مهرق وهو خرقة تطلى وتصقل ليكتب عليها (٦) كان لبكر على تغلب ويقصد بالرب عمرو بن هند

مميزات الكلام الجاهلى

إن لكلام الجاهليين سمات عامة تتناول النثر والشعر معا وأخرى خاصة بكل منهما

أولا — المميزات العامه

فالعامة يراها المطلع عليه فى عباراته ومعانيه والغرض العام الذى يرمى اليه وها هى ذى

ا — فى العبارات

أول ما يلاحظ على عباراته خلوها من اللحن لتمكن السليقة فيهم وقلة اختلاطهم بغيرهم وليس معنى هذا أنه لم يك من أحدهم خروج على المصطلح العام بل معناه أن ذلك الخروج كان قليلا وعن غير الصميم وهو ما سمى بالشاذ والمسموع بخلاف الخروج فى العصور الاسلامية بعد فقد كثر وعارض الاسس ولذلك لم يحجم واضعو أصول العربية عن تسميته لحنا وخطأ مفرقين فى التسميه بين النوعين

ثانيا - خلوها من الدخيل وسببه سبب عدم اللحن غير أن اختلاطهم بمن جاورهم من الامم بعض الاختلاط بحكم الجوار جعلهم يأخذون من لغاتها وبخاصة الفارسية كلمات أدخلوها كلامهم ولكنهم أحدثوا فيها صقلا قربها من لغتهم وأعطاها جرسها فأصبحت كأن لم تك غريبة عنها ولذلك لم يطلق عليها اسم المعرب كما اطلق على ما اقتبس بعد

ثالثا — ايجازها فقد كانوا يرون البلاغة فى الايجاز . وإذ كانوا فرسانها الأوائل فقد قدروا على تحقيق ما رأوا دون اخلال بالمعانى ولا بما قصدوا

اليه من أغراض ولهذا كانوا يفضلون من الجمل القصير واذا خرجوا عنه فالى المتوسط لا الطويل

رابعا — ارسالها على ما تقتضى البلاغة الفطرية دون تكلف فيها ولا مراعاة لما أتت به الصناعات اللفظية بعد فقلما يرى لهم تأنق فى انتقاء ألفاظ متناسبة الوزن متشابهة النغم أو صوغ عبارات ذات جناس أو طباق أو غيرهما من محسنات البديع الا ما أتى عفوا غير مقصود

خامسا — اشتمالها على كثير من الالفاظ المترادفة على القول بأن هناك ترادفا حقيقيا جاء من اختلاط القبائل وتعرف بعضها لغات بعض أما على أنه لا ترادف فى الواقع وأن لكل مرادف خصوصية كانت تعرفها العرب له على مرادفه وأنا نسينا ذلك نحن فلا ترادف الا من حيث الظاهر فقط وهى على كلتا الحالتين لا تخرج عن أن تسمى خاصة ومميزا

ب — فى المعاني

كانت المعاني فى الجاهلية قاصرة على الحقيقية واذا جاوزتها الى غيرها فالى المجاز ذى العلاقة البارزة التى لم يلبث معها طويلا حتى صار حقيقة فى كثير من الالفاظ . أو إلى الكناية قليلة الوسائط مع قرب المنال أو كثيرتها مع شدة اللزوم اللهم الا ما كان رمزا مقصودا وكثيرا ما كانوا يعمدون فى الكناية الى التعريض اتقاء التصريح بما يستهجن أو غيره لسبب ما فلا يقع فى ذلك فحش ولا خفاء . وكانوا اذا تخيلوا لا يخرجون فى ذلك عن الخيال المنتزع الصورة من الحس الظاهر والواقع فى دائرة الامكان العادى أو العقلي الا ما قصدوا فيه الى هذا الخروج كخيالهم فى موارد الامثال الفرضية وبعض الاوابد

جـ — فى الغرض العام

أما الغرض العام الذى يرمي اليه فكان يدور حول ما تقتضيه البداوة

والفطرة الخاليتان من تكلف أهل الحضر وتأنقهم ويكاد ذلك ينحصر في وصف المعيشة البدوية ومرافقها من حل وترحال واستدرار غيث وانتجاع كلأ واستنبات نبت ونتج حيوان وفي إثارة المنازعات والمشاحنات وما تجر اليه من حض على ادراك ثأر وقول في نعي ميت وتفاخر بمال وولد وتباه بشجاعة وانتصار وتشرف بكرم محتد وحوز فضيلة ثم في وصف مايشاهد بجزيرتهم والاخبار عما يقع فيها بما يناسب بيئتهم ويتفق وطبعهم

ثانيا — المميزات الخاصة

١ — في النثر

يمتاز النثر الجاهلي فوق ماتقدم في المميزات العامة بما يأتي

أولا مجيء السجع فيما أثر منه أكثر من الازدواج والازدواج أكثر من الترسل وانما قلنا فيما أثر لأن طبيعة صدور الكلام تأبى الا أن يكون الواقع العكس وانما علق المسجوع بالاذهان أكثر من أخويه كما تقدم لسهولة حفظه ولأنه كان المقصود في مهام الامور على أنه قد كانت هناك طائفة لا تتكلم الا المسجوع هي طائفة الكهنة والعرافين لما للسجع من جمال الوقع على الاسماع وشدة التأثير في القلوب وهذا مايريدون وقد انقرضت هذه الطائفة بالاسلام وكان أكثر الكلام ترسلا ووليه الازدواج ثم السجع فكانت الحال معاكسة لما أثر أو موافقة لما كان في الحق هو الواقع

ثانيا — كثرة أمثاله بنوعيها ومجيء حكمه كثيرة وعلى مقتضى الفطرة أيضا فان الامثال تكاد تكون قاصرة على العهد الجاهلي وما جاء بعد لا يعدو حد القلة وأغلبه على صيغة أفعل . والحكم لاتكاد تحوى تعمقا في فكرة

أو اغراقا فى فلسفة لما كانت عليه العرب من حال بداوة لا تعمق فيها لعلم ولا زخرف لحضارة وانما ساعدها على الاكثار من هذين النوعين رجحان عقولها وسلامة فطرها مع تملكها زمام الفصاحة واقتدارها على الايجاز

ثالثا — تفرده بالمنافرة على معناها الجاهلى فما عرفت فى الاسلام منافرات فرضت فيها الجعول وهرع من أجلها المتنافران الى الحكام وكذا بالمفاخرة فيما نهى عنه الدين بعد وهو أكثر ما كان فى هذا الباب فقد صار جل تفاخر المسلمين بالدين والتقوى وما يقدم من صالح الأعمال للافراد والجماعات الى غير ذلك مما يحض عليه الدين

رابعا — اختلافه فى الاغراض العامة لخطبه ووصاياه عما كان بعد فقد بقيت الخطب والوصايا فى عهود الاسلام الى وقت طويل ولكن التبديل الكبير للعرب فى الدين والسياسة والمعيشة والاجتماع باين كل المباينة فى هذه الاغراض فمات بعضها كشن الغارات والاخذ بالثأر وحلت الكتابة محل الخطابة فى بعض أخر كالسفارات وتحور بعض ثالث تحورا كبيرا فى بواعثه ومآخذه كالحض على القتال إذ صار للفتح والجهاد وكالامر بالمعروف والنهى عن المنكر إذ صارت مآخذه من تعاليم الدين وكذا خطب الاملاك وقلما بقى غرض على حاله كالدعوة الى السلم

ب — فى الشعر

يمتاز الشعر الجاهلى بعد الذى سبق فى المميزات العامة بما يأتى

أولا — اشتمال كثير منه على بعض الالفاظ الغريبة بالنسبة الينا نحن لا إلى وسطهم فان ذلك جاء نتيجة لما أهمل بعد الجاهلية من أغراض كانت كثيرة القصد فيها كوصف الابل وحمر الوحش والقسى ونحوها مما كان من

صميم البادية وهجر فهجرت لذلك الالفاظ التى كانت تؤدى بها معانيه وأصبحت ذات غرابة علينا ولو بقيت تلك الأغراض مؤداة لكانت ألفاظها وما نستسهله الآن سواء

ثانيا — جزالة الالفاظ وضخامة التراكيب ذلك بأنهم كانوا على تمام علم ودراية بمفردات لغتهم والمواطن اللائقة باستعمالها ثم كانوا ذوى قدرة ولباقة على التصرف فى الاساليب بما يكسبها القوة والمتانة وبخاصة فى الاغراض المتطلبة لها كالحماسة والفخر والوعيد والانذار ونحوها أما غيرها مما يقتضى رقة كالنسيب مثلا فقد كانوا غالبا يتخيرون له من الالفاظ مافيه عذوبة ومن التراكيب ماهو ذو سلاسه

ثالثا — اتفاق بدء القصائد فى التشبيب الذى لا يعدو الوقوف على الدمن ومخاطبة الاطلال ووصف الظعون والتحرق على بعد المزار ونعت النوق التى ترحل للحاق بالاحباب ثم وصف هؤلاء الراحلين على خلاف بينهم فى اطالة بعض هذه الجزئيات أو تقصيرها واستيفائها كلها أو إسقاط بعضها

رابعا — عدم حسن التخلص من غرض الى غرض فى القصيدة الواحدة فقد كان يحدث الانتقال فجأة دون تمهيد أو بتمهيد ضئيل لا يعدو أن يكون لفظة أو اثنتين كدع ذا وعد عن ذا ونحوها وبمثل هذه المفاجأة كان ينتهى القصيد

خامسا — اجادة وصف مظاهر البادية فى كل ناحية من نواحيها وتسجيل كثير من أوابد العرب عقائد وعادات. فالشعر الجاهلى وحده يكاد يكون المرجع فيما عرف من هذه الاشياء بخلاف الشعر الاسلامى لبعد رجاله عن البادية سكنا ولتغير أحوالهم العامة تغيرا كبيرا يجعلهم اذا طلجوا ذلك طلجوه عن تكلف منهم

وتقليد لاسلافهم لا يصدر عن شعور ولا ينتزع من وجود

سادسا — تصويره للاشياء على حقائقها من غير ما مبالغة بله الغلو والاغراق اللذين كثرا بعد وانما جعلهم كذلك أن كانوا على فطرة طبيعية لاتكلف فيها وعلى جانب من الحرية لايحد من فكر ولا يقيد فى قول ويتضح هذا جليا فى الوصف كما يتضح فى سائر فنون الشعر . فالمتغزل لاينعت محبوبته بالمستحيل من الصفات ولا يدعى لنفسه اذا نسب الموت فى هواها دون موت. والشجاع المتحمس لايزعم أنه مزلزل الأرضين محرك الراسيات . والفخور لايجاوز مالنفسه وقبيله من محامد وتراث. والراثى لايزعم بموت المرثي ظلام الوجود واختلال نواميس الحياة. وكذلك المدح والهجاء كان فيهما الاعتدال إلا إسراف فى الاول ولا إقذاع في الثاني إلا ماكان آخر العهد لدى بعض الشعراء ممن اتخذوهما وسيله للتكسب رغبا ورهبا ومع هذا لم يصلا الى شيء ما يلقاه بعد فى سائر العهود

سابعا — شدة تأثره فى ذلك العهد أكثر من غيره كما بيناه آنفا حقا كان أم باطلا لان شعور القوم إذ ذاك كان أغلب على عقلهم شأن ذوى الفطرة والسذاجة البعيدين عن تثقيف العلم وتقويم الحضاره

وبعد فان فيما سلف من نماذج وغير نماذج لمختارات النثر والشعر لآيات بينات على ماذكرنا من خصائص ومميزات فليرجع اليها فى ضرب المثل والاستشهاد وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب

الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

ص	س	الخطأ	الصواب
٣	١٣ ، ١٤	ذلك ذلك	ذلك
١٣	٢٢	الغربي	الشرقى
٢٤	٢١	قائله	قائله
٤٦	٨	كصرير	كصرصرة
٤٦	١٢	الفاء	القاف
٥٩	١٠	اثنوا	انثنوا
٦٧	٥	النزرى	النزارى
٧٨	٢١	ولم	وله
٨١	١٥	يقولوا	يقول
٨٣	٢٢	الشعر	النثر
٩٥	٩	كغصن	كغصنى
٩٨	١٠	يتعودا	يتعودوا
١٠٠	١٠	بعث	بعثه
١٠٠	١١	عبد الملك	عبد المطلب
١٠٥	٤	لهوى	لهدى
١٢١	٨	صرحت	حرصت
١٢٨	١٩	داود	داود
١٦٦	١٣	إذا	إذ
١٧٧	٧	ابن	كأين
١٧٧	٨	فانه منهم وهم	فكأنهم
١٨٠	١٣	الحقيقية	الحقيقة